

الشيخ الإمام داعية الإسلام
يحيى بن عيسى بن عبد الله بن أبي

الوصايا

نال شرف إعداده ومراجعته

مركز التراث والبحوث الإسلامية

مكتبة التراث والبحوث الإسلامية

حقوق الطبع محفوظة
للمناشر

الطبعة الأولى
جمادى الأولى ١٤٢٢ هـ - يوليو ٢٠٠١ م



مكتبة التراث الإسلامي

٨ شارع الجمهورية عابدين القاهرة

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠١/١٠٨٠٢

الترقيم الدولي I. S. B. N. 243- 260 - 977

Email: abdallahaggag@hotmail.com

3913406 فاكس: 3925677 - 3911397 هاتف: Islamic Turath Book Shop

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله حمداً طيباً مباركاً فيه على كريم جوده ، حمداً يحيط بمعاني الثناء على جميع وجوهه ، ونشكره سبحانه على نعمه التي لا تحصى ولا تعد على جميع عبيده .

وصلاة الله تعالى وسلامه على النبي الأُمِّيِّ ، التقى ، النقيِّ ، السيد القريب ، الوليِّ الحبيب ، صاحب الخلق العظيم الذي أرسله ربه ليتمم مكارم الأخلاق ، ورضى الله تعالى عن آله الأكرمين ، وأزواجه الطاهرات المطهرات أمهات المؤمنين ، وأصحابه الغُرِّ الميامين ، وجميع التابعين الطائعين ، وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة مُقرَّة بربوبيته ، عارف بوحدانيته .

وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، وصفيُّه وخليِّه ، اصطفاه لوحيه ، وختم به أنبياءه ، وجعله حجة على جميع خلقه ﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال : ٤٢]

وامتدحه سبحانه في كتابه الكريم ، فقال تعالى : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ

خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .

ثم أما بعد .. اعلم يا أخى - وفقك الله تعالى - أن أول
شئ يجب عليك معرفته بعد معرفة الله سبحانه ، وإفراده
تعالى بالوحدانية ، هو متابعة النبي ﷺ والافتداء به . قال تعالى :
﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ [النساء : ٨٠] ، وقال
تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ
كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ [الأحزاب : ٢١] .
وقد رتب الله سبحانه وتعالى حصول الخيرات في الدنيا
والآخرة ، وحصول الشرور في الدنيا والآخرة في القرآن
العظيم على الأعمال ، ترتيب الجزاء على الشرط ، والمعلول
على العلة ، والمسبب على السبب ، وهذا في القرآن الكريم
يزيد على ألف موضع ، ومن أوجب هذه الأعمال طاعة رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ورد الأمر بذلك في القرآن
العظيم في مواضع كثيرة ، منها :

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ ۚ 》 .

• [آل عمران : ٣٢]

وقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ 》 [النساء : ٥٩] .

وقوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ 》 [الأنفال : ٢٠] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ۚ 》 [النور : ٥٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ 》 [الأحزاب : ٣٣] .

وجعل سبحانه وتعالى من ثمرة الطاعة ومشوبة الطائعين :

وقوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۚ 》 .

• [آل عمران : ١٣٢]

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ

تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ

فِيهَا ۚ 》 [النساء : ١٣] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ

اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ

وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا ۚ 》 [النساء : ٦٩] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُخَشِ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [النور : ٥٤] .

وقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ﴾ .

[الفتح : ١٦] .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا ﴾ [الحجرات : ١٤]

وحذر سبحانه وتعالى من عدم متابعة الرسول ﷺ وإطاعة أمره والتسليم له .

قال سبحانه : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء : ٦٥] .

وبالجملة فالقرآن العظيم ملئ بالحض على الطاعة والتأدب مع رسول الله ﷺ . ورأس الأدب معه صلوات الله وسلامه عليه وآله كمال التسليم له والانقياد لأمره وتلقّي خبره بالقبول والتصديق دون أن يحمله معارضة خيال باطل يسمّيه معقولا ،

أو يُقَدِّمَ عليه آراء الرجال ، فيؤخِّدَه بالتحكيم والتسليم
والانقياد والإذعان ، كما وُحِّدَ المُرْسِلُ سبحانه وتعالى
بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل ، فهما توحيدان لا
نَجاة للعبد من عذاب الله تعالى إلا بهما : توحيد المرسِلِ
سبحانه ، وتوحيد متابعة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم .
ولعمر الحق لقد كان الإمام الهروي نافذ البصيرة حين انتزع
منزلة « الأدب » في كتابه القيم « منازل السائرين » والذي
شرحه العلامة ابن القيم وسماه : « مدارج السالكين » من قوله
تعالى : ﴿ يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا
النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ﴾ [التحريم : ٦] . قال ابن عباس : « أَذْبُوهُمْ
وَعَلَّمُوهُمْ » (١) .

وهذا الكتاب الذي بين يديك : جليل القدر ، عظيم النفع ،
حافل بالعلم القائم على الأصول الصحيحة والفهوم السديدة ،

(١) من مقدمة كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح [٦/١] ،
ومدارج السالكين لابن القيم [٣٧٥/٢] ، ومكارم الشريعة
للأصفهاني [ص : ١١١] .

جامعاً لمكارم الأخلاق ومعاليها ، والذي من شأنه أن يعين على تحقيق سعادة الدارين بكمال متابعة هدى النبي ﷺ في واحد من أهم أمور الدين ألا وهو « الخلق » فقد ثبت عنه صلوات الله تعالى وسلامه عليه وآله أنه قال : « بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » (١) .

فكان مقصود الرسالة المحمدية هو تنمية الإحساس الأخلاقي

(١) رواه أحمد في المسند [٣٨١/٢] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه ، وقال الأرناؤوط : صحيح ، وهذا إسناد قوى ، رجاله رجال الصحيح ، غير محمد بن عجلان ، فقد روى له مسلم متابعة ، وهو قوى الحديث .

قال ابن عبد البر في التمهيد [٣٣٢/٢٤] قوله : « لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ » يدخل في هذا المعنى الصلاح والخير كله ، والدين والفضل والمروءة والإحسان والعدل ، فبذلك بُعث ليتممه ، وقد قالت العلماء : إن أجمع آية للبر والفضل ومكارم الأخلاق قوله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [النحل : ٩٠] .

فى بنى البشر ، وإنارة آفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا إليها على بصيرة (١) .

ومن هنا كان التأكيد على الثمرة الأخلاقية لكثير من العبادات بحيث تفارق كونها طقوسًا وشعائر مبهمه ، وتعمل على تحرير الطاقات الأخلاقية الكامنة فى الكينونة الإنسانية فيترقى هذا الكائن فى مدارج الكمال الإنسانى ويصبح وجوده ذا مغزى عميق تتجلى من خلاله القدرة الإلهية فى صياغة المجتمع الفاضل والحياة الكريمة لبنى الإنسان ، ومن هنا نفهم قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ [العنكبوت : ٤٥] .
وقوله تعالى : ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ [التوبة : ١٠٣] . إلى غير ذلك من الآيات التى تؤكد على المغزى الأخلاقى والروحى للعبادات والشعائر .

(١) انظر خلق المسلم للشيخ محمد الغزالى رحمه الله تعالى عليه
[ص : ٦] .

فإذا كان ذلك كذلك ، فاعلم أن هناك علاقة وثيقة جدًا بين الدين والأخلاق ^(١) . وأن الأخلاق إنما هي دين تحول إلى قواعد للسلوك ، أى : تحول إلى مواقف إنسانية تجاه الآخرين وفقًا لحقيقة الوجود الإلهي ^(٢) .

والتأمل لأحوال المسلمين الآن يدرك ببصيرته النافذة ما آلت إليه الأخلاق من تراجع وانحلال ، مما حدا بالكثير من العلماء إلى تصنيف الكتب التى تعالج كثيراً من المفاصد الأخلاقية الناشئة عن ضعف التمسك بالدين .

ويأتى فى طليعة هؤلاء العلماء الأجلاء الذين تصدوا بقولهم وسلوكهم لتوجيه الناس إلى أصول الأخلاق ومحاسن الفضائل ومداواة النفوس فى عصرنا هذا الملىء بالمناهج الهدامة التى تقدم العقل على النقل ، والفساد الأخلاقى الذى أفضى

(١) مقدمة كتاب الآداب الشرعية لابن مفلح [ص : ٨ ، ٩] .

(٢) الإسلام بين الشرق والغرب ، على عزت ييجوفتش

[ص : ١٩٣] .

إلى خور العزائم ، والنكوص عن متابعة هدى أكمل الخلق
صلوات الله تعالى وسلامه عليه وآله .

فضيلة العارف بالله الشيخ الإمام

« محمد متولى الشعراوى »

شيخ الزمان ، وترجمان القرآن ، الذى ملأ الدنيا بنور
القرآن ، وجمع الناس على ذكر الله وتلاوة كتابه وصرفهم
عن لهو الدنيا ، وبذل جهوداً عظيمة فى سبيل تصحيح
المفاهيم ، ورد شبهات الطاعنين فى القرآن العظيم ، وتصدى
بحزم وقوة لهؤلاء الجهلانيين ، وأبدع رضى الله تعالى عنه فى
الاستنباط من القرآن الكريم ، وجهر بالحق فى وجه كل من
حاد عنه ، فكان رحمة الله تعالى عليه فى هذا العصر « أمة
وحده » جمع الله فيه كل فضائل الخير ، وخلف لنا
تفسيراً للقرآن الكريم من أصح كتب التفسير وأشملها ، كتب
فى مقدمته :

« ... فهذا -نصاد عمرى العملى ، وحصيلة جهادى
الاجتهادى ، شرفى فيه أنى عشقت كتاب الله ، وتظامنت

لاستقبال فيض الله ، ولعلنى أكون قد وفيت حق إيماني ،
وأديت واجب عرفاني ، (١) .

فالزم يا أخى الأدب ، وفارق الهوى والغضب ، واعمل فى
أسباب التيقظ ، واتخذ الرفق حزباً ، والتأنى صاحباً ،
والسلامة كهفاً ، والفراغ غنيمه ، والدنيا مطية ، والآخرة منزلاً .
قال الحسن رضى الله تعالى عنه : إن الله تعالى لم يجعل
للمؤمن راحة دون الجنة .

واحذر مواطن الغفلة ، ومخاتل العدو وطربات الهوى ،
وضراوة الشهوة وأمانى النفس ، فإن رسول الله ﷺ قال :
« أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » (٢) . وإنما صارت
أعدى أعدائك لطاعتك لها .

وكل أمر لاح لك ضوءه بمنهاج الحق ، فاعرضه على

(١) كلمة بخط الشيخ رضى الله تعالى عنه فى مقدمة تفسير
الشعراوى - دار أخبار اليوم .

(٢) رواه البيهقى فى الزهد بإسناد ضعيف ، وراجع كشف
الحفاء [١٤٣/١] ، وتخريج أحاديث الإحياء للعراقى [٧/٨] .

الكتاب والسنة والآداب الصالحة فإن خفى عليك أمر فخذ فيه
رأى من ترضى دينه وعقله .

واعلم أن على الحق شاهداً بقبول النفس له ، ألا ترى قول
رسول الله ﷺ : « استفت قلبك وإن أفثاك المفتون » ^(١) وقيد
الجوارح بأحكام العلم ، وراع همك بمعرفة قرب الله منك ،
وقم بين يديه مقام العبد المستجير : تجده رعوفاً رحيماً .

(١) رواه أحمد في المسند [٢٢٨/٤] ، والدارمي [٢٤٦، ٢٤٥/٢] ،
وأبو يعلى [١٦٠/٣ : ١٦٢] عن وابصة بن معبد رضى الله
تعالى عنه ، ولفظ أحمد : « يا وابصة جئت تسأل عن البر
والإثم » . قلت : نعم .

قال : فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال : « استفت
نفسك واستفت قلبك ثلاثاً ، البر ما اطمأنت إليه النفس
واطمأن إليه القلب ، والإثم ما حاك في النفس وتردد في
الصدر ، وإن أفثاك الناس » .

ولفظ : « أفثاك المفتون » هنا ذكره البخارى في التاريخ
الكبير ، وانظر تعليق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة رحمة الله تعالى
عليه على رسالة المسترشدين للإمام المحاسبى [ص : ٨٤] .

وقال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل ينزل العبد من نفسه بقدر منزلته منه » ^(١) . وذلك على قدر الخشية لله ، والعلم به ، والمعرفة له .

واعلم أنه من أثر الله أثره ، ومن أطاعه فقد أحبه ، ومن ترك له شيئاً لم يعذبه به ، كما قال رسول الله ﷺ : « دع ما يريك إلى ما لا يريك » ^(٢) . فإنك لن تجد فقد شيئاً تركته لله .

(١) جزء من حديث ورد في فضل ذكر الله عز وجل بنحو هذا اللفظ ، قال المنذرى في الترغيب [٦٥/٣] ، [٥٣٤/٥] رواه ابن أبي الدنيا ، وأبو يعلى ، والبزار والطبرانى ، والبيهقى وقال : صحيح الإسناد ، وفي أسانيدهم كلهم عمر مولى غفرة . ضعفه ابن معين والنسائى ، وقال أحمد : ليس به بأس ، لكن أكثر حديثه مراسيل ، وقال ابن سعد : ثقة كثير الحديث ، وبقية أسانيدهم ثقات مشهورون محتج بهم ، والحديث حسن ، والله أعلم .

(٢) جزء من حديث رواه أحمد في المسند [٢٠٠/١] ، والترمذى [٢٥١٨] ، وقال : حسن صحيح . وصححه الألبانى .

واخِمِ القلب عن سوء الظن بحسن التأويل ، وادفع الحسد
بقصر الأمل ، وانفِ الكبير باستبطان العِزِّ ، واترك كل ما فَعَلَهُ
يضطُرُّكَ إلى اعتذار ، وجانبِ كل حال يَزِمِيكَ في التكلف ،
وَصُنْ دينك بالاقتداء ، واحفظ أمانتك بطلب العلم ، وَحَصِّنْ
عقلك بآداب أهل الحلم ، واستعدَّ بالصبر لكل موطن ، والزم
الخلوة بالذكر ، واصحب النعم بالشكر .

واستعن بالله في كل أمر ، واستَخِرْ الله في كل حال ، وما
أَرَادَكَ الله له فاترك الاعتراض فيه ، وكل عمل تحب أن تلقى
الله به فَأَلْزِمُهُ نفسك ، وكل أمر تكرهه لغيرك فاعتزله من
أخلاقك . وكل صاحب لا تزدد به خيراً في كل يوم فانبذ
عنك صحبته . وخذ بحظك من العفو والتجاوز .

واعلم أن المؤمن يختبر صدقه في كل حال ، مُطْلَبٌ نفسه
بالبلوى ، رقيب لله على نفسه . فاثبت على محجة الحق فإنك
مراد العون .

واصدق في الطلب تَرِثْ علم البصائر ، وتَبْدُ لك عيون
المعارف ، وتَمَيِّزْ بنفسك على ما يَرِدُ عليك بخالص التوفيق ،

فإنما الشُّبُقُ لمن عمل ، والخشية لمن علم ، والتوكل لمن وثق ،
والخوف لمن أيقن ، والمزيد لمن شكر ^(١) .

هذا ما أردت أن أتقدم به بين يدي هذا الكتاب الجامع الذى
يحتاج إليه كل عالم وعابد بل وكل مسلم لما فيه من الآداب
الشرعية والحكم القرآنية .

وهذا الكتاب هو الأول فى سلسلة كتب هادفة بعنوان
« الوصايا » لتربية الناشئة والشباب على مكارم الأخلاق
وفضائل الأعمال

فإنما الأئمة الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا ^(٢) .

(١) رسالة المسترشدين للمحاسبي [ص : ١٢ : ١٥] .

(٢) القائل هو أمير الشعراء أحمد شوقي فى قصيدة بعنوان :

الشعب والقوم ، وفيها :

هل غلغتم أمة فى جهلها ؟	ظهرت فى المجدي حشنة الرداء ؟
باطن الأئمة من ظاهرها	أئمة السائل من لون الإناء
فخذوا العلم على أغلامه	واطلبوا الحكمة عند الحكماء
واقصروا تاريخكم واحتفظوا	بفصيح بقاءكم من فصحاء
واحكموا الدنيا بسلاطين قما	خلقت نضرتهما للضعفاء =

جمعت مادته من خواطر ودروس فضيلة العارف بالله الشيخ محمد متولى الشعراوى رحمة الله تعالى عليه ، وتم شرحها والتعليق عليها وتبويبها ، وإضافة ما قصرت عنه المادة من الكتب الأخرى ، كمؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية ، وابن القيم ، والإمام القرطبي ، وابن كثير ، وابن حجر العسقلاني ، وغيرهم .

وتخريج أحاديثها والحكم عليها من خلال كتب الجرح والتعديل ، وكتب العلماء التى صنفت الصحيح والضعيف . مع الاستفادة بالكتب المحققة من قبل علماء الحديث وذلك بمعرفة مركز التراث لخدمة الكتاب والسنة .

جزى الله الجميع خيراً ، وجعل كل ذلك فى ميزان حسناتهم .

والله اسأل تحسن القصد والنية وأن ينفع به كاتبه وقارئه وناشره ، وأن يجعله سبحانه عام النفع والبركة ، وأن يجزل

هى ضاقت فاطلبوه فى السماء
فإن هم ذهبوا أخلاقهم ذهبوا
فإن تولت مضوا فى إثرها قدما
إذا رعى صلة فى الله أو رحما

واطلبوا المجد على الأرض فإن
ولما الأمم الأخلاق ما بقيت
ولما الأمم الأخلاق ما بقيت
فما على الزعم فى الأخلاق من خزي

خير الجزاء لشيخنا الراحل جزاء ما قدم ، وأن يخلفه في آله
رضى الله تعالى عنهم ، إنه سبحانه نعم المولى ونعم النصير
وبالإجابة جدير .

وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .
وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

عبد الله حجاج

ربيع الأول ١٤٢٢

يونيه ٢٠٠١



الإخلاص فى العمل

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلِكُلِّ دَرَجَتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [الأنعام : ١٣٢] .
ومعنى ﴿ وَلِكُلِّ ﴾ أى : أنه لكل من الإنس والجن درجات مما عملوا ، والدرجات معناها أن الأعمال تتفاوت ، والأعمال مدارها على النية ^(١) ، والنية محلها القلب ، ولا يطلع على القلوب إلا الله تعالى .

ولذلك فإن الرقيب العتيد يسجل الأعمال الظاهرة ^(٢) ، ولكن الإخلاص فى القلب ، لا يعرفه إلا الله سبحانه وتعالى ، وهو الذى يُحاسب عليه ، وعليه مناط الأمر كله .

(١) أخرج البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

(٢) إشارة إلى قوله تعالى : ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق : ١٨] .

وتكون درجات المؤمنين على حسب التزامهم بأمر الله تعالى ،
ليس هذا فقط بل مدى تطوعهم بأعمال هي من جنس ما
فرضه الله تعالى عليهم ، زيادة عما فرضه سبحانه عليهم ،
فمثلاً نجد أن الله تبارك وتعالى فرض الصلوات الخمس ،
ولكن العبد المؤمن يتطوع بصلوات أخرى غير المفروضة
كالسنن الرواتب مثلاً ، ويقوم الليل ، وهذا هو مقام الإحسان ،
الإحسان بمفهومه المادى ، والإحسان بمفهومه المعنوى ، وهو كما
جاء فى الحديث : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه
يراك » كما علمنا الرسول ﷺ فى حديث جبريل المشهور (١) .
والله تعالى فرض الصيام فى رمضان ولكن بعض الناس
يتطوع فيصوم الاثنين والخميس من كل أسبوع ، أو ثلاثة أيام
وسط الشهر العربى ، ومنهم من يصوم يوماً ويفطر يوم ، وكل
هذا زيادة على ما فرض الله ، ولكنه من جنس ما فرض سبحانه .
وهناك من الناس من يقف عند ما فرضه الله ، وفى الحديث
أن أعرابياً جاء إلى رسول الله ﷺ وقال له : لن أزيد على ما

(١) أخرجه البخارى [٤٧٧٧] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه ،
ومسلم [١/٨] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه .

فرض الله شيئاً ! فقال الرسول ﷺ : « قد أفلح إن صدق » (١) .
فإذا كان من يؤدي ما فرضه الله قد أفلح ، فالذي يزيد على
ما فرض الله شريطة أن يكون من جنس ما فرض الله يكون
أشد فلاحاً ، وهكذا تتفاوت الدرجات بين الناس في أعمالهم ،
والدرجات تفيد العلو والدركات تفيد الهبوط .

(١) روى أحمد في المسند [١٦٢/١] عن طلحة بن عبيد الله قال :
جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله :
ما الإسلام ؟ قال : « خمس صلوات في يوم وليلة » .
قال : هل علي غيرهن ؟
قال : « لا » .
وسأله عن الصوم .
قال : « صيام رمضان » .
قال : هل علي غيره ؟
قال : « لا » .
قال : وذكر الزكاة قال : هل علي غيرها ؟
قال : « لا » .
قال : والله لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن .
فقال رسول الله ﷺ : « قد أفلح إن صدق » .
وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين . وأخرجه
بنحوه البخاري [٢٦٧٨] .

التواصي بالحق والخير

كَرَّمَ اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ بِالْفَضْلِ الْكَبِيرِ ، وَمَيَّرَهَا بِأَنْ تَكُونَ
مَنَاعَتُهَا دَائِمًا فِي ذَوَاتِ أَفْرَادِهَا ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ فِي ذَوَاتِ الْأَفْرَادِ
فَفِي كُلِّ الْمَجْمُوعِ ؛ وَلَا يَخْلُو الزَّمَانُ مِنْ رَجُلٍ صَالِحٍ يَقُولُ
لِلْمُنْكَرِ لَا (١) ، وَلِذَلِكَ لَنْ يَأْتِيَ رَسُولٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .
فَلَوْ كَانَتْ هُنَاكَ طَائِفَةٌ سَوْفَ تُفْسِدُ الْمَجْتَمَعَ وَتُذِيبُ مَنَاعَةَ كُلِّ
أَفْرَادِهِ لَكَانَ مِنَ الْإِجْرَامِ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولٌ .

(١) رَوَى أَبُو دَاوُدَ [٤٢٩١] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « إِنْ اللَّهُ يَعْثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى
رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْ يَجْدُدُ لَهَا دِينَهَا » .
وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ أَبِي دَاوُدَ [٣٦٠٦] ، وَرَوَاهُ
الْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ [٥٦٧/٤] .
وَأَخْرَجَ مُسْلِمٌ [١٧٠/١٩٢٠] عَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ
قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ
عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مِنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
كَذَلِكَ » .

ولكن لما كان محمدا ﷺ هو خاتم النبيين ^(١) ؛ فقد فضل الله سبحانه وتعالى أمته ﷺ على سائر الأمم ^(٢) ، فجعل وازعها دائماً فيها ، بحيث تكون النفس لوامة لكل فرد . والمجتمع نفسه يحمي الإنسان من الوقوع في الخطأ ، فيوجد في المجتمع أناس يقومون بالوعظ والنصح ، ويكون كل واحد في المجتمع « موصياً » وكل واحد « موصى » ولتقرأ قول الحق : ﴿ وَالْعَصْرُ ۝ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَشِيرٌ ۝ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَّصَوْا بِالصَّبْرِ ۝ ﴾ [العصر] .

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۝ ﴾ .
وأخرج البخاري [٣٣٤٢] ، ومسلم [٢٠/٢٢٨٦] عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « مثلي ومثل الأنبياء ؛ كمثل رجل بنى بنياناً فأحسنه وأجمله . فجعل الناس يطيفون به ، يقولون : ما رأينا بنياناً أحسن من هذا . إلا هذه اللبنة . فكنت أنا تلك اللبنة » .

(٢) قال سبحانه وتعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ۝ ﴾ .

ومادة « تفاعل » تشرح لنا معنى « تواصى » مثلها مثل
تشارك ، ومعنى ذلك أن كل واحد يقول الوصية ، وكل واحد
يتلقاها نصيحة ؛ وذلك لأن النفس البشرية من الأغيار فقد
تهيج النفس على المنهج مرة ، فتأتى الشرّة بالشروء عن المنهج
حينئذ يقوم واحد وينصّح وينبّه ، ويردّها الإنسان لصاحبه بعد
فترة .

فالتواصى يقتضى أن يكون كل واحد موصياً وكل واحد
موصى ، وكل واحد فى المجتمع الإيماني يفتح عينيه بالانتباه
لنصح الآخرين بالابتعاد عن الضعف ، وبذلك لا يتعدي أن
يوجد فى الأمة المحمّدية من يوصى بالخير فى موقف وموص
فى موقف آخر بحيث لا يتأبى الإنسان على وصاية غيره ، ولا
عجب فالمؤمن مرآة أخيه ^(١) .

(١) روى أبو داود [٤٩١٨] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه
قال : قال رسول الله ﷺ : « المؤمن مرآة المؤمن والمؤمن أخو
المؤمن ، يكف عليه ضيعته ، ويحوطه من ورائه » ، وحسنه
الألبانى فى صحيح أبو داود [٤١١٠] .

الضرب على يد صاحب المنكر

يريدُ الله أن يَلْفِتَنَا إلى إنا نَجِبُ ألا نترك الفِتنَ والمعاصي حتى يستغصِبَ حلُّها وتصبحَ كبيرةً ، بل لابد أن نواجهها وهي صغيرة لأنَّه في هذه الحالة إذا نزلَ العقابُ فإنه لا يُصِيبُ الذين ظَلَمُوا فقط ولكنه يصيبُ أيضاً مَنْ تركوا هذه الفِتنَ تكبُّر وتزداًد ، ولذلك إذا رأيتَ أيَّ انحرافٍ في أيِّ شيءٍ فاضربْ على يدِ المنحرفِ فإنَّ المعصيةَ تكبُّر إذا تُرِكَتْ ؛ فالذي تمرس في الإجرام حتى أصبحَ زعيمَ عصابةٍ مثلاً لم يبدأ المعصيةَ هكذا ، بل إنه زُبماً أولَ ما سَرَقَ سَرَقَ من أبيه ، أو من أمه ، أو من أخيه ، ولم يُعاقَبْ ، فسرقَ من الجيران ، ثم بدأ يسرقُ من الحيِّ ، ثم اجتمعَ مع عددٍ من الأشرارِ وكوَّنَ العصابةَ ؛ فلو أنَّه ضُربَ على يده في الجريمةِ الصغيرةِ لما أَصْبَحَ زَعِيمَ عِصَابَةٍ ، وإياكَ أن تقولَ إنَّ هذا الشيءَ ما دامَ لم يَمَسَّنِي فليسَ من شَأْنِي لأنَّ الذي اعتدى على غيرِكَ مِنَ السَّهْلِ أن يعتديَ عليك . وكلُّنا نذكُرُ مثلاً قصةَ الثور الأبيض والثور

الأحمر عندما جاع الأسد تركه الثور الأحمر يأكل الثور الأبيض ما دام لم يتعرض له بأذى ، ثم لما جاع الأسد انطلق ليفترس الثور الأحمر الذي قال : « أنا أكلت يوم أكل الثور الأبيض » لأنني لو وقفت يومها مع الثور الأبيض نواجه الأسد وقاومناه لما جزؤ على أن يفترس أيأ منا ^(١) .

(١) يروى أن أمير المؤمنين علياً رضي الله تعالى عنه قال : إنما مثلي ومثل عثمان كمثل أثوار ثلاثة كن في أجمة أبيض وأسود وأحمر ، ومعهن فيها أسد ، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهن عليه ، فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لا يدل علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض فإن لونه مشهور ولوني على لونكما ، فلو تركتماني آكله صفت لنا الأجمة ، فقالا : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : لوني على لونك ، فدعني آكل الأسود لتصفو لنا الأجمة ، فقال : دونك فكله ، فأكله ، ثم قال للأحمر : إني آكلك لا محالة ، فقال : دعني أنادي ثلاثاً ، فقال : افعل ، فنادي ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، ثم قال علي رضي الله تعالى عنه : ألا إني هنت - ويروى : وهنت - يوم قتل عثمان يرفع بها صوته .
مجمع الأمثال للميداني : الجزء الأول ، الباب الأول ، فيما أوله همزة .

ولكن لماذا يُعَمُّ العقاب ؟ لأنهم لم يضربوا على يد صاحب
الفِتْنَةِ الأولى وهي لا تزال صغيرة ، فالأب مثلاً إذا وجد
الابن أو الابنة إذا أخضرأ أشياء من الخارج وهو لم يُعْطِهما
ثَمَنها فلا بُدَّ أن يسألَهما من أين لك هذا ؟ ولنا في قصة
سيدتنا مريم وسيدنا زكريا العبرة والعظة حين سألها لما وجد
عندها رزق لم يأت به وكان عليه السلام كافلها ، والقائم على
أمرها ، فقال لها : ﴿ أَتَىٰ لَكَ هَذَا ﴾ [آل عمران : ٣٧] .

إذن .. يجب أن يُضرب على يد كل معتد ؛ ولذلك فإن
الحق سبحانه وتعالى في عقوبة القتل - الذى هو قمة المفساد -
جعل الدية على العائلة حتى يضربوا على يد من تُسَوَّلُ له نفسه
قبل أن يرتكب الجريمة . والناس إذا رأوا الظالم ولم يضربوا
على يده - يُوشِكُ أن يعُمَّهم الله تعالى بعقاب من عنده ، لأنه ما
امتسرى هذا الظالم فى ظُلمه إلا لأنَّ الناس سكتوا على هذا
الظلم . وأنت حين تَسْتُرُ على من يفعلُ شراً لِيَتَّقَى بذلك
شَرَّهُ فإنه لا بد وأن سيأتى اليوم الذى يُصِيْكَ منه شرٌ كبيرٌ .

ولذلك فسيّدنا أبو بكر الصّدّيق رضی اللّٰه عنه قال : إنكم
تقرأون آية في كتاب الله على غير وجهها ، تقرأون قوله سبحانه
وتعالى : ﴿ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّىٰ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ ﴾ ^(١) [المائدة: ١٠٥]
ومن هدايتكم أن تضربوا على يد صاحب المنكر لأن هدايته
ستنقيس عليكم وعلى المجتمع كله بالخير ، ورسول الله صلى
الله عليه وسلّم يُعطينا المثل الذي يُعطينا الصورة كاملة فيقول
عليه الصّلاة والسلام :

« مثل المدّهن في حدود الله والواقع فيها مثل قوم استهموا
سفينة فصار بعضهم في أسفلها و صار بعضهم في أعلاها ،
فكان الذين في أسفلها يملّون بالماء على الذين في أعلاها فتأذوا
به ، فأخذ فأسًا فجعل ينقر أسفل السفينة ، فأثّره فقالوا : مالك ؟

(١) روى أحمد في المسند [٧/١] عن أبو بكر رضي الله تعالى
عنه قال : إني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا
رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعقابه » .
وقال الأرناؤوط إسناده صحيح على شرط الشيخين . وأبو
داود [٤٣٣٨] ، والترمذی [٢١٦٨] وابن ماجه [٤٠٠٥]
وصححه الألباني في صحيح الترمذی [١٧٦١] .

قال : تأذيتم بى ولا بد لى من الماء ، فإن أخذوا على يديه أنجوه
ونجوا أنفسهم ، وإن تركوه أهلكوه وأهلكوا أنفسهم ، (١) .
هذا الحديث يُقسَّم الناس إلى قِسْمَيْن : قائم على حدودِ الله
وَوَاقِع فيها ؛ وقد ركبوا سَفِينَةً ، والسَّفِينَةُ لها أعلى - وهو
السُّطْح - وأسفل .

ومعنى استهَمُوا على سَفِينَةٍ ، أى : لم يوجد قَوِيٌّ فَرَضَ
سلطانه على غيره لأنهم ما داموا استهَمُوا أى أجزوا قُرْعَةً
وهذا يحدث كلما اختلفَ الناس على شىء منهم يُجزون
القُرْعَةَ لحِسَمِ الخِلاف - فقد حسموا الأمر بينهم .

وكان الذين فى أسفل السَّفِينَةِ - إذا أرادوا الماء - صعدوا
إلى السُّطْحِ لِيُلْقُوا الدَّلْوَ وَيُخْضِرُوا الماءَ ، فقالوا نحن نُؤْذِي
المَقِيمِينَ على السُّطْحِ وَنَتَعَبُ صُعوداً وَهَبوطاً فلو أننا خرقنا فى
الجزء الخاص بنا خرقاً نأخذ مِنْهُ الماءَ لكانَ ذلكَ مُريحاً بالنسبةِ

(١) أخرجه البخارى [٢٦٨٦] عن النعمان بن بشير رضى الله
تعالى عنه .

لَنَا فَلَوْ أَنَّهُمْ تَرَكُوهُمْ يَخْرِقُونَ الْخَرْقَ الَّذِي يُرِيدُونَ لَهْلَكُوا
جَمِيعاً ، وَلَوْ أَنَّهُمْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ لَنَجَّوْا جَمِيعاً .

وليس معنى هذا أن يقومَ كُلُّ إِنْسَانٍ بِتَطْيِيقِ الْعُقُوبَةِ ، فهذا
خاص بوليّ الأمر ، ولكن العامة مأمُورُونَ أن يستخدموا
اللسانَ والقلبَ ^(١) في استنكارِ الْفِتَنِ التي تحدثُ .

وَكُلُّ وَاحِدٍ مِنَّا مُطَالِبٌ بِأَنْ يَضْرِبَ عَلَى يَدِ مَنْ هُوَ تَحْتَ
وِلَايَتِهِ ؛ فَالْأَبُّ لَهُ زَوْجَتُهُ وَأَوْلَادُهُ ، وَرَئِيسُ الْمَصْلَحَةِ لَهُ مَنْ
يَعْمَلُونَ تَحْتَ رِئَاسَتِهِ وَالْحَاكِمُ لَهُ الْعُمُومِيَّةُ .

وَلَوْ أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنَّا فَعَلَ هَذَا فِي نِطَاقِهِ مَا وَجَدَ فَسَادًا ؛
فَالْمَجْتَمَعُ مَكُونٌ مِنْ أُسَرٍ ، فَإِذَا مَا مَنَعَ رَبُّ الْأُسْرَةِ الْفَسَادَ فِيهَا
اتَّجَمَعَ الْمَجْتَمَعُ كُلُّهُ لِلصَّلَاحِ .

(١) رَوَى النَّسَائِيُّ فِي الْمَجْتَبَى [٥٠٠٨/١١١/٨] عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ
رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : « مَنْ رَأَى
مَنْكَرًا فَلْيَغْيِرْهُ بِيَدِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ
فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ » وَقَالَ الْأَلْبَانِيُّ : صَحِيحٌ .

وَكُلُّ عَمَلٍ لَهُ رَئِيسٌ مَسْئُولٌ عَنْهُ ، لَوْ مَنَعَ الرَّئِيسُ فَسَادَ
لَا مَتَنَعَ الْفَسَادُ فِي الْمَجْتَمَعِ وَبَقِيَ بَعْدَ ذَلِكَ الْأَمْرُ الْعَامُّ لِلْحَاكِمِ .
وفى الحديث : « كلکم راع وکلکم مسؤول عن رعیتہ » ^(۱) .



(۱) جزء من حديث أخرجه البخارى [۸۹۳] عن عبد الله بن
عمر رضى الله تعالى عنهما .

قال ابن حجر فى الفتح : فإن قيل قوله : « كلکم راع » ليعم
جميع الناس فیدخل فيه المرعى أيضاً ، فالجواب : أنه مرعى
باعتبار « راع » ، حتى ولو لم يكن له أحد كان راعياً لجوارحه
وحواسه ، لأنه يجب عليه أن يقوم بحق الله وحق عباده .
فتح البارى [۳۸۱/۲] .

إِذَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ رَزَقَهُ اسْتِقَامَةً

لو عقل الناسُ لعرفُوا أَنَّ تَوْزِيثَ الْقِيَمِ يَفُوقُ تَوْزِيثَ الْمَالِ
وَذَلِكَ لِأَنَّ الْقِيَمَ تَجْعَلُ الْمَالَ خَادِمًا لِلْإِنْسَانِ لَا سَيِّدًا لَهُ .
والاستِقَامَةُ الْإِيمَانِيَّةُ تُوفِّرُ لِلْإِنْسَانِ مِنَ الْكَرَامَةِ فَوْقَ مَا يَتَصَوَّرُ
أَحَدٌ . إِنَّ أَحَدًا مِمَّا لَمْ يَزِ اسْتِقَامَةً تُكَلِّفُ مَالًا إِنَّمَا الَّذِي يَكَلِّفُ
الْمَالَ هُوَ الْانْحِرَافُ .

إِنَّ الْانْحِرَافَاتِ هِيَ بِالْوَعَاتِ لِلْمَالِ ، أَمَا الْاسْتِقَامَةُ فَلَا
تُكَلِّفُ شَيْئًا وَتُوفِّرُ لِلْإِنْسَانِ الْخَيْرَ وَالْمَالَ ^(١) .

(١) قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا
تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [هود : ١١٢] .
قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ الْخُطَابُ
لِلنَّبِيِّ ﷺ وَلِغَيْرِهِ .

وَقِيلَ : لَهُ وَالْمَرَادُ أَمَتُهُ ؛ قَالَ السَّدِيُّ .
وَقِيلَ : « اسْتَقِمْ » اطْلُبِ الْإِقَامَةَ عَلَى الدِّينِ مِنَ اللَّهِ وَاسْأَلْهُ
ذَلِكَ . فَتَكُونُ السِّينُ سَيْنَ السُّؤَالِ ، كَمَا تَقُولُ : أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ
أَطْلُبُ الْغُفْرَانَ مِنْهُ . وَالْاسْتِقَامَةُ الْاسْتِمْرَارُ فِي جِهَةٍ =

= واحدة من غير أخذ في جهة اليمين والشمال ، فاستقم على امتثال أمر الله .

وفي صحيح مسلم عن سفيان بن عبد الله الثقفي قال : قلت يا رسول الله قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحد بعدك ! قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » (١) .

وروى الدارمي أبو محمد في مسنده عن عثمان بن حاضر الأزدي قال : دخلت على ابن عباس فقلت أوصني ! فقال : « نعم ! عليك بتقوى الله والاستقامة ، اتبع ولا تبتدع » (١) . ﴿ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ ﴾ أى استقم أنت وهم ، يريد أصحابه الذين تابوا من الشرك ومن بعده ممن اتبعه من أمته .

قال ابن عباس ما نزل على رسول الله ﷺ آية هي أشد ولا أشق من هذه الآية عليه ، ولذلك قال لأصحابه حين قالوا له : لقد أسرع إليك الشيب ! فقال : « شيتنى هود وأخواتها » (٢) . =

(١) أخرجه مسلم [٦٢/٣٨] .

(٢) رواه الدارمي [١٣٩/٦٥/١] .

(٣) ذكره ابن سعد في الطبقات [٤٣٠/١] .



= وروى عن أبي عبد الرحمن السلمى قال : سمعت أبا علي
السرى يقول : رأيت النبى ﷺ فى المنام فقلت : يا رسول الله !
روى عنك أنك قلت : « شيتنى هود » .
فقال : « نعم » .
فقلت له : ما الذى شريك منها ؟ قصص الأنبياء وهلاك الأمم !
فقال : « لا ولكن قوله : ﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ ﴾ » .
تفسير القرطبي [١٠٧/٩] .

الثبُت .. والتبَيُّن .. وعدم التسرع

يقول رب العزة تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَسْلَمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ۝ .

[النساء : ٩٤] .

إنها آية جمع الله تعالى فيها بين كل المعاني ، ففيها الحكم وحيثيته والمراد منه .

بدأ سبحانه الآية بنداء : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ۝ ، والخطاب بالإيمان حيثية الالتزام بالحكم ، إنه سبحانه لم يقل : « يا أيها الناس إذا ضربتم فتيَّنوا » ، ولكنه قال : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا ۝ أى : إنه سبحانه يُطالب المؤمنين به بالتكليف لأنهم آمنوا به إلهاً . وما داموا قد آمنوا فعليهم اتباع ما يطلبه الله ؛ إذن .. حيثية كل

حكم من الأحكام أن المؤمنين قد آمن بمن أصدر الحكم ، فإياك
 أيها المؤمن أن تقول : « ما العلة ؟ » أو « ما الحكمة ؟ » ،
 وذلك حتى لا تدخل بنفسك في متاهة ، ونحن نؤكد على
 هذه المسألة لأنها تطفو في أذهان الناس كثيراً ، ويسأل البعض
 عن حكمة كل شيء ، ولذلك نقول : إذا لم تؤمن بالشئ إلا
 إذا عرفت حكمته ، صيرت إلى الحكمة لا إلى الأمر بالحكم .
 ونحن نرى في حياتنا الآن الذين لا يؤمنون بإله ، أو يؤمنون
 بإله ولكنهم أسرفوا على أنفسهم ، وارتكبوا الكبائر كشهادة
 الزور أو أكل الربا .. ولناخذ مثلاً شارب الخمر عندما يُحلل
 الأطباء كبده يجدده قد تليّف ، فيقول له الطبيب : إنَّ أيَّ
 جرعة خمر زائدة ستسبب الوفاة ، هنا يمتنع عن شرب الخمر !
 لماذا امتنع ؟ لأنه عرّف الحكمة ، فهل كان امتناعه عن الحكم
 تنفيذاً لأمر إلهي ؟ لا .. ولكن المؤمن يمتنع عن الخمر لله ،
 لأنها حُرِّمت بحكم من الله . إنَّ المؤمنين يُنفذون كلَّ الأحكام
 حتى في الأشياء غير الضارة فمن الذي قال : إن الله لا يُحرِّم
 إلا الشئ الضار .. ؟ إنه قد يُحرِّم أمراً لتأديب الإنسان .

ونضرب هذا المثل - ولله المثل الأعلى - إن الرجل يقول لزوجته -
إياك أن تعطى ابناً بعضاً من الحلوى التى أحضرتها ، لأنه لم
يفعل كذا وكذا مما أمرته به ، إنه يمنع الحلوى لا لأنها ضارة
ولكنه يريد أدب الابن والتزامه . والحق سبحانه قال : ﴿ فَيُظْلِمُ
مَنْ الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴾ [النساء : ١٦٠]
إن الذى يذهب إلى تنفيذ حكم الله إنما يذهب إليه لأن الله قد
أمر به ، وليس لأن حكمة الحكم مفيدة له .

فلو ذهب إنسان إلى الحكم من أجل فائدته أو ضرره فإن
الإيمان يكون ناقصاً لكن الله يُرى فى كثير من الأوقات
حكمته فى كثير من الأحكام حتى يَرى الإنسان وجهاً من
الوجوه اللانهائية لحكمة الله .. فيقول الإنسان « أنا لم أكن
أعرف حكمة كذا .. ثم ينت لي الأحداث والتحليل صدق
الله فيما قال ، وهذا يُشجع الإنسان أن يأخذ أحكام الله وهو
مسلم بها ، فهى دليل على صحة إيمانه .

إن الحق يقول : ﴿ يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ إنها الحيشة .. يا
من آمنت بى إلهاً قادراً حكيماً اسمع منى ما أريدُه منك .

قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ : الضرب كما نعرفه هو انفعال الجارحة على شىء آخر بعنف وقوة ، وكلمة ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء : ١٠١] معناها أن الحياة كلها حركة وانفعال .. ولماذا الضرب في الأرض ؟ لأن الله أودع فيها كل أقوات الخلق ^(١) . فحين يحبون أن يخرجوا خيراتها فالبشر يقومون بحزبها حتى يهيئوها ويؤموا البذور وبعد ذلك يتعهدوها بالرعى ، ومن بعد ذلك تخرج الثمار ، إن هذه عملية يسموها إثارة للأرض . إذن .. كل حركة تحتاج إلى قوة ومكافحة . وقوله سبحانه :

﴿ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ ﴾ [الزمل : ٢٠] وما دامت المسألة ضرباً في الأرض فهي تحتاج إلى عزم من الإنسان وإلى قوة ولذلك يقال : إن الأرض تحب من يهيئها بالعزق والحرث ، وكلما اشتدت حركة الإنسان في

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَجَعَلَ فِيهَا رَواسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيَوْمَ ۖ ﴾ [فصلت : ١٠] .

الأرض كلما أخرجت له خيراً ، والضرب في سبيل الله هو الجهاد ، أو لإعداد مقومات الجهاد ، والحق سبحانه يقول لنا : ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ ﴾ [الأنفال : ٦٠] والإعداد هو أمرٌ يسبقُ المعارك .. وكيف يتم الإعداد ؟ لابد أولاً أن نقوم بإعداد الأجسام ، والأجسام تحتاج إلى مقومات الحياة ولا بد أن نقوم بإعداد العدد ، والعدد تحتاج إلى بحث في عناصر الأرض وبحث في اختلافات الصناعات ، وكل عمليات الإعداد تتطلب من الإنسان البحث والصناعة ، ولذلك جاء في الحديث : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة ، صانعه ، يحتسب في صنعه الخير ، والرامي به ، ومنبله » ^(١) لماذا ؟ لأن هناك إنساناً قام بقطع الخشب وصقله الذي يتم منه صناعة السهم وهناك إنسان وضع للسهم النبل .. وهناك من يرمى السهم بالقوس .

(١) جزء من حديث رواه أبو داود [٢٥١٣] عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله تعالى عنه . وضعفه الألباني في ضعيف أبو داود [٥٤٠] .

إن الحق سبحانه يريد منا أن نكون أقوياء حتى يكون الضرب
منا قوياً . وقوله تعالى : ﴿ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا ﴾
هنا يُوجب علينا أن نعرف أن الضرب في سبيل الله لا يكون
في ساعة الجهاد فقط ، ولكن في كل أحوال الحياة .. لماذا ؟
لأن كل ما لا يتأتى الواجب إلا به فهو واجب ^(١) .

إذن .. قوله تبارك وتعالى : ﴿ يَتَأْتِيكَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا
ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا ﴾ [النساء : ٩٤]

معناه هو : لا تأخذوا الأمور بظواهرها إلا إذا تَبَيَّنَ وتأكدتم .
ولماذا التبين ؟ وذلك حتى لا يصيب المؤمنون قوماً بظلم .. ولهذا
الأمْر قصة .

فبعض آيات القرآن تأتي بعد قصة ما .. لقد كان هناك
واحد اسمه « محلم بن جثامة » وكان بينه وبين آخر اسمه « عامر
الأشجعي » إحن ، أى شئ من البغضاء ، وبعد ذلك كان
« محلم » فى سرية وهى بعض من الجنيد المحدود العدد ،

(١) قاعدة فقهية مشهورة ، انظر القواعد والفوائد الأصولية لابن

اللاحام [ص : ٩٦ ، ٩٧] القاعدة [١٧] .

وصادف محلم بن جثامة ، عامر الأشجعي وكان « عامر » قد أسلم ، فلما ألقى السلام على « محلم » ومن معه قال « محلم » : إن « عامراً » قد تظاهر بالإسلام ليهرب مني فحمل عليه ، وقتل محلم عامراً ، وذهب إلى رسول الله ﷺ ، سأله الرسول ﷺ : « ولماذا لم تبين ؟ ألم يلق إليك بالسلام ؟ .. كيف تقول له إنك تقول : « السلام عليكم » لتنقذ نفسك من القتل ؟

وقال الرواة : فلما مات « محلم » ودفن لفظته الأرض مرة بعد أخرى .

وكلما كانت تأتي آية مخالفة لنواميس الدنيا المفهومة للناس .. كان رسول الله ﷺ يحرص ألا يفتن الناس في هذه الآيات فيصحح لهم ويرشدهم إلى ما فيه صالحهم .

ومثال ذلك : عندما مات إبراهيم بن النبي ﷺ ، حدث أن انكسفت الشمس ، فقال الناس : انكسفت الشمس من أجل ابن رسول الله ﷺ ، ولكن لأن المسألة مسألة عقائد ، فقد قال الرسول ﷺ : « إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله

لا يخسفان حياةٍ أحدٍ أو موته « (١) لقد قالوا ذلك تكريماً
لرسول الله وابنه إبراهيم ولكن الرسول يريد أن يُصحح للناس
مفاهيمهم وعقائدهم .

وعندما لفظت الأرض « محلماً » وحتى لا يفتتن أحدٌ أو
يقول : إن هناك كفاراً كثيرين قد دُفِنوا ولم يُلفظوا .

لم يسكت الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى لا
تحدث هزة ولو بسيطة في جزئية ، ويقول الناس إن أبا جهل
في حالٍ لا بأس به وكذلك الوليد بن المغيرة فهما لم تلفظهما
الأرض كما لفظت : محلم .

لكن الرسول أوقف مثل هذه الأمور قبل أن تساور أحداً ،
وقبل أن يستغلها الشيطان لزعة الإيمان في نفوس المؤمنين ،
فقال : « أما الأرض فقد قبلت من هو شرٌّ من محلم ولكن الله
أراد أن يريكم آية في قتل المؤمن » وفيه نزل قول الله تعالى :

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٠٤٤] ، ومسلم
[١/٩٠١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيِّبُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ لَكُمْ مُؤْمِنًا ﴾ ^(١) .

[النساء : ٩٤] .

(١) ذكر القصة ابن الأثير في أسد الغابة [٧١/٥] عن القعقاع بن عبد الله بن أبي حدرد ، عن أبيه قال : بعثنا رسول الله ﷺ إلى إضم ، فخرجت في نفر من المسلمين فيهم أبو قتادة ، ومسلم بن جثامة ، فخرجنا حتى إذا كنا بيطن إضم مرَّ بنا عامر بن الأضبط الأشجعي ، على بعير له ، فلما مرَّ علينا سلم علينا بتحية الإسلام ، فأمسكنا عنه ، وحمل عليه مسلم بن جثامة فقتله لشيء كان بينه وبينه ، وأخذ بعيره ومتاعه . فلما قدمنا على رسول الله ﷺ أخبرناه الخبر ، فنزل فينا القرآن : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيِّبُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ أَلَيْسَ لَكُمْ مُؤْمِنًا ﴾ [النساء : ٩٤] الآية .

وذكر الطبري أن مسلم بن جثامة توفي في حياة النبي ﷺ فدفنوه فلفظته الأرض مرَّة بعد أخرى ، فأمر به فألقى بين جبلين وجعل عليه حجارة ، وقال رسول الله ﷺ : « إن الأرض لتقبل من هو شر منه ، ولكن الله أراد أن يُريكم آية في قتل المؤمن » ^(١) .

(١) أخرجه الطبري [١٤٠، ١٤٢/٥] وانظر تفسير ابن كثير [٣٣٨/٢] ، والسيوطي في الدر المنثور [٢٠٠/٢] .

وعلى ذكر ذلك جاءتنى رسالة يقول فيها صاحبها : كنت
أسمع إحدى الإذاعات وأخطأوا وقالوا : « فثبتوا » بدلا من
« تبينوا » فى قول الحق تبارك وتعالى فى سورة الحجرات :
﴿ إِنْ جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْهُ ﴾ . [الحجرات : ٦] .

ولكن السامع الذى أرسل الخطاب سمعها « فثبتوا » ..
نقول له : إن هذه قراءة من القراءات ، والمعانى دائماً ملتقية ،
ف « تبين » معناها « اطلب البيان لتتثبت » .

ولنا أن نعرف أن القرآن قد نزل على سبعة أحرف وكتابة
القرآن كانت بغير نقط وبغير شكل - وهذا حال غير حالنا ،
حيث نجد الحروف قد تم تشكيلها بالفتحة والضمة والكسرة

= قال أبو عمر : وقد قيل : إن هذا ليس محلم بن جثامة ، فإن
محلما نزل حمص بأخوة ، ومات بها فى أيام ابن الزبير .
والاختلاف فى المراد بهذه الآية : كثير جدا ، قيل : نزلت فى
المقداد ، وقيل : أسامة ، وقيل : فى محلم . وقيل : فى غالب
الليثى . وقيل : نزلت فى سرية ، ولم يُسمَ قائل هذا أحدا .
وقيل غيرهم ، وكان قتله خطأ .

ونحن نعرف أن هناك حروفاً مُشْتَبِهَةً الصورة فال « با »
تشابه مع « التا » و « اليا » وكذلك « النون » و « التاء » و « الثاء »
ولم تكن هذه النقط موجودة ، ولم تكن هذه العلامات
موجودة قبل الحجاج بن يوسف الثقفي ، وكانوا يقرأون
بِمَلَكَةِ الْعَرِيَّةِ .. ولذلك إن لم يُصِبْ نص الكلمة فهو
لا يبعد عن معناها . ومثال ذلك « فَبَيَّنُوا » إنها مكونة من الـ
« فاء » ولم يحدث فيها خلاف وكذلك « التاء » وبقية
الحروف هي الباء والياء والنون .. وكل واحدة من هذه
الأحرف تصلح أن نجعلها « تَبَيَّنُوا » بوضع النقاط أو نجعلها
« تَبَيَّنُوا » . إنه خلاف في النقط .. ولو حذفنا النقط لقرأناها
على أكثر من صورة .. إما على المعنى الصحيح أو المعنى
القريب من المعنى الصحيح .

ولذلك عندما جاءوا لواحد لم يكن يحفظ القرآن
وأحضروا له مصحفاً ليقرأ ما فيه فقال : « صنعة الله ومن
أحسن من الله صنعة » ولم يحدث خلاف في « الصاد »

ولكن حدث خلاف في معنى الآية ، ف « الباء » صالحة لتكون « با » أو « نا » وكذلك « الغين » يمكن أن تكون « عيناً » لذلك فالآية في قراءة حفص : ﴿ صَبَغَهُ اللَّهُ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صَبَغَهُ ﴾ [البقرة : ١٣٨] وعندما قرأها الإنسان الذى لا يجيد قراءة القرآن على طريقة حفص قال : « صنعة الله ومن أحسن من الله صنعة » إن المعنى واحد ، فهو وإن لم يقع عليها فقد وقع قريباً منها لماذا ؟ لأن الملكة عريضة وعندما ينطق سياًتى بالسياق الذى يأتى بالمعنى .

وكذلك من قرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ ﴾ [الأعراف : ١٥٦] هذه هي قراءة حفص ، ولكن الذى لم يحفظ القرآن قبل تنقيط حروفه قرأها : « قال عذابى أصيب به من أساء » صحيح أن كلمة « أساء » فيها ملحظ آخر للمعنى ؛ لكن القراءة الأخرى لم تبعد بالمعنى وعلى ذلك فكلمة « فتبينوا » تُقرأ مرة « فتثبتوا » ومرة تُقرأ فتبينوا فى الآيتين .. سواء فى هذه الآية أو فى الآية التى يقول

فيها الحق : ﴿ إِن جَاءَكُمْ فَاصِقُ بَنَاءٍ فَتَيِّنُوا ﴾ [الحجرات : ٦] .
 والتبين يقتضى الذكاء والفطنة حتى يتعرف الإنسان من
 إيمان مَنْ ألقى إليه السلام ، هل يصلّى ؟ هل ، هل .. والحقُّ
 يقول : ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ
 مُؤْمِنًا ﴾ [النساء : ٩٤] ، إن الذى يكفى المؤمن شر الظن إذا ما
 قال أحدٌ : السلام عليكم ، هنا يجب أن يفطن المسلم إلى أن
 أمر القلوب لا يعلمه إلا الله تعالى وألا يأخذ إنساناً بالشبهات .
 ولذلك نجدُ النبىَّ يحزِمُ الأمرَ مع أسامةَ بن زيد الذى قتل
 واحداً بعد أن أعلن هذا الواحدُ إسلامه بقوله : لا إله إلا الله ،
 وظن أسامة أنه قالها خوفاً من السلاح ، فقال له النبىُّ ﷺ « أفلا
 شققت عن قلبه » ^(١) إن أسامة رضى الله تعالى عنه قال
 للرسول ﷺ : لقد قال الشهادة ليحيمى نفسه من الموت ،
 فكانت الإجابة : هل شققت عن قلبه فعرفت أن قوله :
 « لا إله إلا الله » كان خوفاً من القتل ؟!

(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [١٥٨/٩٦] عن أسامة بن
 زيد رضى الله تعالى عنهما .

إن لقول : « لا إله إلا الله » ، حُرمةً ، فساعة يقولها الإنسان تعصم دمه ، فلا يجوز قتله ، لقد قال أهل العلم : إن نَجاةَ ألفِ كافرٍ خيرٌ من أخذ مؤمنٍ واحدٍ .

وقوله تعالى : ﴿ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ ﴾ [النساء : ٩٤] .
يعنى : أعلن إيمانه حتى ولو كان مستسلماً تحت بريق السيف ، إنه ليس من حق أحد أن يُلقى الاتهام بعدم الإيمان على مَنْ جاء مسلماً أو يقول بتحية الإسلام .

وكلمة : ﴿ عَرَضَ ﴾ إذا ما سَمِعْنَاهَا ، فلنَعْلَمَ أن معناها اللغوى : هى كل ما يَعْرضُ ويزولُ وليس له دوامٌ أو استقرار أو ثباتٌ ، ونحن - البشر - أعراضٌ ؛ لأنه ليس لنا دوامٌ أبداً .
ويُقَالُ إن الإنسانَ عَرَضٌ إذا ما قاس الواحدُ منا نفسه بالنسبة للكون ، لأن الكونَ لا يتمُّ بناؤه على الإنسان بل إنَّ الكونَ كله الذى نراه هو عرض لأنه سيأتى عليه يوم ويزول .
إذن .. فالعرض بالنسبة لكل شئء بحاجته ، والعرض بالنسبة للإنسان أن الواحد منا قد يرى نفسه صحيحاً أو سقيماً ، هنا تكون الصحة عرضاً وكذلك المرض ، وكذلك السمنة

والنحافة ، ولون البشرة إذا ما تعرض للشمس يتغير من أبيض إلى أسمر . وكذلك الغنى والفقر ، وكل شيء يمكن أن يذهب فى الإنسان ويأتى فهو عرض بالنسبة للإنسان ، ويكون الإنسان جوهرأً بالنسبة له ، فإذا قسنا الإنسان إلى ثابت عنه ، فالإنسان عرض ، فعندما نقيس الإنسان بيناية يكون عرضاً ، لأن البناية ستظل والإنسان سيذهب .

وعندما نقيس الدنيا نجدها عرضاً ، يقول تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] وعرض الحياة الدنيا هنا هو أن يطمع المقاتل فيما يملكه الذى يلقي السلام ، وقد يكون عرض الحياة الدنيا هنا هو عزة نفس الإنسان عندما ينتقم من إنسان بينه وبينه إحنٌ أو بغضاء ، وعندما نسمع كلمة : ﴿ عَرَضٌ ﴾ وهذا العرض فى الحياة الدنيا ، نفهم أن ذلك عرض فيما لا قيمة له ، ولذلك نجد الشاعر يعبر عن مشاعر الإنسان حينما يحزن لفقدان شيء كان عنده ، وينسى هذا الإنسان أنه هو نفسه معرض للموت فيقول :

نفسى التى تملك الأشياء ذاهبة فكيف آسى على شىء لها ذهبنا
وكذلك : ﴿ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ﴾ ، نحن نفهم كلمة « دنيا »
على أساس الاشتقاق « علوا » وعلى ذلك يكون مقابل « الدنيا »
هو « العليا » .

ومن يرغب فى : ﴿ عَرَضُ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا ﴾ فعليه أن
يملك الذكاء والحكمة والفطنة ، فلا يجب أن يأخذ العرض
ممن سيقتله ، ولماذا لا يستخدم البصيرة الإيمانية ويأخذ الحياة
الدنيا ممن خلقها ؟

إن العاقل لو أراد الحياة الدنيا فليأخذها من خالق الحياة كلها
ومالكها ، ولا يأخذها من إنسانٍ مثله .. لأن الإنسان لا يملك
الحياة الدنيا بدليل أنه معرض للقتل .

﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا فَعِندَ اللَّهِ مَغَانِمُ
كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] والحق سبحانه وتعالى ساعة يخاطب
النفس البشرية التى خلقها فهو سبحانه يعلم تعلقها بالأشياء
التي تنفعها أو تعطىها اللذة حتى لو كانت مؤقتة ، مثل ذلك :
الإنسان يكون سعيداً إذا ما تناول غذاءه ، ويكون سعيداً أكثر

إذا امتلك الغداء والعشاء ، ويكون أكثر سعادة عندما يمتلك قوته لمدة شهر أو عام ، ويكون أكثر إشراقاً بالسعادة عندما يمتلك أرضاً يأخذ منها الرزق ، لنفسه وكذلك أولاده من بعده .

إذن .. فالإنسان يحب الحياة لنفسه ويحب امتداد حياته في غيره ، ولذلك نجد الإنسان يحزن عندما لا يكون عنده أولاد ، لأنه يعرف أنه ميت لا محالة ، لذلك يتمنى أن تكون حياته موصولة في ابنه ، وإن جاء لابنه ابن وصار للإنسان حفيد فالإنسان يسعد أكثر لأن ذكره سيكون في جيلين ، هنا نقول لمثل هذا الإنسان : لتفرض إنك ستحيا ألف جيل ، لكن ماذا عن حالتك في الآخرة ؟ ليس أمامك إلا أن تعمل صالحاً ، وتنشئ ولداً على الصلاح حتى يدعوك (١) .

(١) أخرج مسلم [١٤/١٦٣١] عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاثة : إلا من صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعوه له » ، وأبو داود [٢٨٨٠] ، والترمذي [١٣٧٦] ، والنسائي [٢٥١/٦] ، وأحمد في المسند [٣٧٢/٢] .

ولذلك يكشف الحق سبحانه وتعالى النفس البشرية المتحولة
 التى تهفو إلى المغامم أمام صاحبها فيأتى بالحكم الذى يظهر
 الخواطر التى تجول فى النفس البشرية ساعة سماع الحكم .
 الحق سبحانه لما قضى أن يحرم دخول المشركين البيت
 الحرام وقال : ﴿ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ
 الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ﴾ [التوبة : ٢٨] . فمعلوم أن
 المشركين حين يدخلون البيت الحرام ، يدخلون بتجاراتهم
 وأموالهم .

إذن .. فهم يذهبون إلى موسم اقتصادى يبيعون ويشتررون
 البضائع ويعيش أهل الحرم من ريعها طوال العام ، وعندما
 يحرم الحق دخول المشركين إلى البيت الحرام يعلم الحق أن أهل
 الحرم ساعة يسمعون هذا الحكم سيتذكرون المكاسب
 والبضائع والتجارة والمغامم التى سيحرمون منها فيقولون فى
 أنفسهم : وكيف سنعيش ؟ ولأن الأمر هو الخالق سبحانه
 الذى يعلم السر وأخفى فقد طمأنهم على حياتهم ، فقال
 سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ
 فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٢٨] .

ولذلك فلا أحد له من بعد ذلك تعليق ! ونحن هذه الأيام نمر بمثل هذا الكلام ، فعندما يقول المحبون لدين الله الغيورون على شرعه : « يجب أن نمنع الخمر ! فيقول الآخرون : وماذا نفعل فى السياحة التى تأتى لنا بأموال كثيرة تنعش اقتصاد الدولة ؟ هنا نقول لهم ما قاله الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عِيَلَكُمْ فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ [التوبة : ٢٨] . وقد يرزقنا الله عندما نعف عن الخمر وغيرها من المحرمات بأشياء تفوق الحسبان ، كآبار بترول جديدة أو ثروات معدنية أكثر قيمة من البترول .. إننا لن نُعلم الله - معاذ الله - ماذا يصنع لنا ، إنه كفيل بنا ما دمنا نأخذ بأسبابه ونمتنع عن المحرمات . إن الذين يظنون أن الخمر هى عماد السياحة مخطئون .. ولنتدبر قول خالقنا تبارك وتعالى : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عِيَلَكُمْ فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ .

إن قول الحق سبحانه : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [النساء : ٩٤] هذا القول ينطبق على أهل كل عصر

وكل زمان وتكون الإجابة على هذا القول فيما جاء من بعد
 ذلك ﴿ فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] ولذلك أنا
 أحب أن يتفكر الناس دائماً في قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ
 عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيَكُمْ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ ، وكذلك قوله
 تعالى : ﴿ تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ
 مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ﴾ [النساء : ٩٤] لعل آية من هذه الآيات تمس
 قلوب الرعاة أو من ييدهم الأمر فيلتفتوا إلى شرع الله الذي
 يرزقنا جميعاً . كذلك أحب أن يتدبر الناس قول الحق سبحانه :
 ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ
 فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ [النساء : ٩٤]
 إنها دعوة لأن يأخذ المسلمون العبرة من تاريخهم القريب
 ويتعاونوا فيما بينهم ، ويكونوا يداً على من سواهم .
 وقوله تعالى : ﴿ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ ﴾ لقد كان
 المسلمون الأوائل قلة مُسْتَذَلَّةٌ تدارى إيمانها .. فهل سلط الله
 عليهم أحداً يجترىء على التفتيش في النوايا ؟!

إذن .. فمثلما حدث لكم قدروا لإخوانكم ﴿ كَذَلِكَ
كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ كُنتُمْ عَلَيْهِمْ ﴾ . إن الله من
عليهم بأنهم صاروا أهل رفعة ، وصار المسلم يمشى عزيز
الجانب ^(١) ولا يجرؤ واحد أن يوجه إليه أى شىء .

قول الحق : ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾ هنا بعد أن قالها فى صدر الآية ،
الأولى مقصود بها : ألا يقتل مسلم إنساناً ألقى السلام لمجرد
أن المسلم يفكر فى المسألة الاقتصادية ، إذن .. ﴿ فَتَبَيَّنُوا ﴾

(١) عن عدى بن حاتم رضى الله تعالى عنه قال ، قال رسول الله
ﷺ : « فوالذى نفسى بيده ليطمن الله هذا الأمر حتى تخرج
الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد » .
جزء من حديث طويل رواه أحمد فى المسند [٢٥٧/٤] .
وعنه رضى الله تعالى عنه أنه قال : كنت عند رسول الله ﷺ
فجاء رجلان يشكو أحدهما العيلة ، ويشكو الآخر قطع
السبيل ، فقال رسول الله ﷺ : « أما قطع السبيل فلا يأتى
عليك إلا قليل حتى تخرج العير من الحيرة إلى مكة بغير
خفير ... » . الحديث رواه ابن حبان فى صحيحه [٧٣٧٤]
وقال الأرناؤوط : حديث صحيح .

جاءت أولاً تمهيداً للحيثية ، وما هي تأتي مرة ثانية نتيجة للحيثية .

إن الحق سبحانه وتعالى حين يشرع لا يشرع عن خلاء .. ولكنه خبير بكل ما يصلح النفس الإنسانية ^(١) ولا يعتقد أحد أنه سبحانه خلقنا ثم هداانا إلى الإيمان ليخذلنا فى نظام الحياة ، إنه سبحانه خلقنا وأعطانا المنهج لنكون نموذجاً ليرى الناس جميعاً أن الذى يحيا فى رحاب المنهج تأتية الدنيا وهى راغمة ^(٢) .

﴿ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾ إنه سبحانه خبير بما نعمل ، كأن الحق يقول إياك أن تستر بلباقتك شيئاً وتخلع عليه شيئاً غير حقيقى ، لأن الذى تطلب منه الجزاء هو الرقيب عليك والحسيب ، يعلم سبحانه المسألة من أولها إلى آخرها .

(١) قال الله تعالى : ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

[الملك : ١٤] .

(٢) قال الله تعالى : ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاى فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾ .

فالذى قتل إنساناً ألقى إليه السلام ، لم يقتله لأنه لم يسلم
ولكن لأن بينه وبين الآخر إحنا وبغضاء .

وقوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي الْأَرْضِ ﴾ [النساء: ١٠١]
هو تأكيد على مهمة الضرب فى الأرض ، وهو سبحانه لم
يقول : « إن ضربتم » لأن أسلوب « إن » يكون للشك عادة ،
فيقال للتلميذ : « إن ذاكرت تنجح » ، ولكن لو قلنا : « إذا
ذاكرت فسوف تنجح » فـ : « إذا » تعبر عن التأكيد ، و : « إن »
حرف ، ولكن « إذا » اسم للشرط يدل على الزمن ، وأى فعل
من الأفعال عناصره الحدث وزمن الحدث ، فإذا كان الحدث
فى زمن قبل أن تتكلم ، فهو حدث ماضٍ ، وإذا كان الحدث
يجرى ساعة الكلام فهو مضارع ، وإذا كان الحدث
سيجربى من بعد ذلك فهو مستقبل ، و « إن » لا تأتى وحدها
بشيء من عناصر الحدث ، لأنها حرف إلا فى قول « إن تفعل »
أى : الفعل .. ولكن « إذا » جاءت بعنصر الزمن لأنها ظرف
لما يستقبل منه وهى قرينة للتحقيق وكأن الحق سبحانه يقول :
إن الإيمان الذى أعلنتموه واستقر فى قلوبكم يحتاج منكم إلى

الضرب فى الأرض .. وأنا أمهد لكم أن تعرفوا أن الضرب فى الأرض هو أمر بالنسبة للإيمان يجب أن يتحقق .

إن الانسياح بالدعوة الإيمانية أمر واجب ولذلك قلنا إن من شرف أمة سيدنا محمد ﷺ أنها حملت امتداد الرسالة بعد رسول الله ﷺ فلم يأت من بعد رسول الله أنبياء ، ولذلك عندما يقول رسول الله ﷺ : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » ^(١) لماذا ؟ لأن العلماء ورثة الأنبياء ^(٢) ، فهم يحملون المنهج ، والله قد تكفل بحفظ المنهج : ﴿ إِنَّا نَحْنُ

(١) أخرجه مسلم [١٩٢٠/١٧٠] عن ثوبان رضى الله تعالى عنه .

(٢) جزء من حديث رواه أبو داود [٣٦٤١] ، وابن ماجه [٢٢٣] ، والدارمى [٣٤٢/١١٠/١] وابن حبان فى صحيحه [٨٨] ، وأحمد فى المسند [١٩٦/٥] وصحيحه الألبانى فى صحيح أبو داود . كلهم عن أبى الدرداء رضى الله تعالى عنه ، والعبارة أوردها البخارى فى صحيحه فى كتاب العلم ضمن عنوان باب العلم قبل القول والعمل .

نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُمُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر : ٩] وقال الحق سبحانه
وتعالى : ﴿ لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ
عَلَى النَّاسِ ﴾ [الحج : ٧٨] فكما أن الرسول سيشهد أنه بلغ
مَنْ عاصره منهج الله ودعوته ، وكذلك مَنْ عاصره من
الصحابه رضى الله تعالى عنهم بلغوا التابعين من بعدهم ،
وهكذا ، حتى وصلنا الأمر جلياً نقياً ، فسوف يكون مطلوباً
منا أن نبليغ دعوة رسول الله ﷺ للناس ^(١) ، وبهذا أمرنا

(١) روى أبو داود [٣٦٦٠] عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى
عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « نضر الله امرأ سمع
منا حديثاً فحفظه حتى بلغه ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه
منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه » . والترمذى [٢٢٥٦] ،
وابن ماجه [٢٣٠] ، وأحمد فى المسند [١٨٣/٥] ، وابن
حبان فى صحيحه [٦٧] ، [٦٨٠] ، وصححه الألبانى فى
صحيح أبو داود . كلهم عن زيد بن ثابت رضى الله تعالى عنه .
وأخرج البخارى [٣٤٦١] عن عبد الله بن عمرو قال : قال
رسول الله ﷺ : « بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً ، وَحَدِّثُوا عَنِ =

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى تتواصل الأجيال
ونعيش الرسالة وكأننا في عصرها الأول .

○○○

= بنى إسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمداً فليتبوأ
مقعده من النار » ، والترمذى [٢٦٦٩] ، وأحمد في
المسند [٢٠٢/٢] .

النهي عن السوء وسيلة النجاة

قال الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعذِرَةٌ لِّإِنِّكَ رَبِّكَزُّ وَلَعَلَّهُمْ يَنْفِقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ ^(١) [الأعراف: ١٦٥] قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى : ما ذكرهم المؤمنون به وعظا .

(١) قال ابن كثير : يخبر تعالى عن أهل هذه القرية أنهم صاروا إلى ثلاث فرق : فرقة ارتكبت المحذور واحتالوا على اصطيد السمك يوم السبت ، كما تقدم بيانه فى سورة البقرة . وفرقة نهت عن ذلك وأنكرت واعتزلتهم . وفرقة سكنت فلم تفعل ولم تنه ، ولكنها قالت للمُنْكَرَةِ : ﴿ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ أى : لم تنهون هؤلاء وقد علمتم أنهم قد هلكوا واستحقوا العقوبة من الله ، فلا فائدة فى نهيكهم إياهم ؟ قالت لهم المنْكَرَةُ ﴿ مَعذِرَةٌ لِّإِنِّكَ رَبِّكَزُّ ﴾ قرأ بعضهم بالرفع ، كأنه على تقدير : هذا معذرة . =

= وقرأ آخرون بالنصب ، أى : نفعل ذلك « معذرة إلى ربكم »
 أى : فيما أخذ علينا من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
 ﴿ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ يقولون : ولعل بهذا الإنكار يتقون ما هم
 فيه ويتركونه ، ويرجعون إلى الله تائبين ، فإذا تابوا تاب الله
 عليهم ورحمهم .

قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ ﴾ أى : فلما أبى
 الفاعلون المنكر قبول النصيحة ﴿ أُنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ
 السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى : ارتكبوا المعصية ﴿ بِعَذَابٍ
 بَيعِيسٍ ﴾ فنص على نجاة الناهين وهلاك الظالمين ، وسكت
 عن الساكتين ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فهم لا
 يستحقون مدحا فيمدحوا ، ولا ارتكبوا عظيما فيذثوا ، ومع
 هذا فقد اختلف الأئمة فيهم : هل كانوا من الهالكين أو من
 الناجين على قولين ، وقال ابن عباس : ﴿ وَإِذْ قَالَتْ أُمَةٌ مِّنْهُمْ
 لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَلَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ﴾ هى
 قرية على شاطئ البحر بين مصر والمدينة ، يقال لها أيلة ،
 فحرم الله عليهم الحيتان يوم سبتهم ، وكانت الحيتان تأتيهم
 يوم سبتهم شرعا فى ساحل البحر ، فإذا مضى يوم السبت =

= لم يقدرُوا عليها ، فمضى على ذلك ما شاء الله ، ثم إن طائفة منهم أخذوا الحيتان يوم سبتهم ، فنهتهم طائفة وقالوا : تأخذونها وقد حرمها الله عليكم يوم سبتكم ؟! فلم يزدادوا إلا غيًّا وعتوًّا ، وجعلت طائفة أخرى تنهاهم ، فلما طال ذلك عليهم قالت طائفة من النُّهاة : تعلمون أن هؤلاء قوم قد حق عليهم العذاب : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهَ مُهْلِكُهُمْ ﴾ وكانوا أشد غضبًا لله من الطائفة الأخرى ، فقالوا : ﴿ مَعْدِرَةٌ إِلَيْنَا إِنَّ رَبَّنَا لَ عَلِيمٌ بِنَقْوِنَا ﴾ وكل قد كانوا ينهون ، فلما وقع عليهم غضب الله نجت الطائفتان اللتان قالوا : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهَ مُهْلِكُهُمْ ﴾ والذين قالوا : ﴿ مَعْدِرَةٌ إِلَيْنَا إِنَّ رَبَّنَا لَ عَلِيمٌ بِنَقْوِنَا ﴾ وأهلك الله أهل معصيته الذين أخذوا الحيتان فجعلهم قردة . وقال عكرمة عن ابن عباس فى الآية ، قال : ما أدرى أنجما الذين قالوا : ﴿ لِمَ تَعْطُونَ قَوْمًا أَلَّهَ مُهْلِكُهُمْ ﴾ أم لا ؟ قال : فلم أزل به حتى عرفته أنهم قد نجوا ، فكسانى حلة . وقد قدمنا فى سورة البقرة من الآثار فى خبر هذه القرية ما فيه مقنع وكفاية . والله الحمد .

= القول الثانى : أن الساكتين كانوا مع الهالكين .

وقوله تعالى : ﴿ أَتَجِدْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوْرِ ﴾ يدل
على أن النجاة هنا للفرقة الواعظة ثم جاء العذاب للذين ظلموا
وعصوا ولكن ما هو مصير الفرقة الثالثة التي قالت : ما لنا
ومالهم ؟

إن هذه الفئة التي يئست من طول الوعظ وعدم الاستجابة
هم أيضاً من الواعظين لأنهم حين يقولون إن الله مهلك هؤلاء
الظالمين ومعذبهم يكون هذا وعظاً وتخويفاً لكل الحاضرين مما
ينتظرهم من العذاب ، وسوء المصير نتيجة لظلمهم .

إذن .. قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَتَجِدْنَا الَّذِينَ
يَنْهَوْنَ عَنِ الشُّوْرِ ﴾ وهم الفئة التي قامت بالدعوة ويئست

= وقوله تعالى : ﴿ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ ﴾ فيه
دلالة بالمفهوم على أن الذين بقوا نجوا . و ﴿ بَئِيسٍ ﴾ فيه
قراءات كثيرة . ومعناه في قول مجاهد : الشديد . وفي رواية :
أليم . وقال قتادة : موجع . والكل متقارب . والله أعلم .

عمدة التفسير [٢٣٧/٥ : ٢٣٨] .

من استجابة العاصين لربهم ، أما الذين ظلموا فأخذهم الله
﴿ بِعَذَابٍ بَيعِيسٍ ﴾ أى : عذاب شديد ، لأن كلمة الباء
والهمزة والسين تدل على الشدة ، وفى ذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ ﴾ [الحديد : ٢٥]
أى : شدة .

وقوله تعالى ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾ : تعنى أن المسألة لم
تكن تعنتا من الله سبحانه وتعالى ولكنها كانت بسبب ظلمهم
وفسقهم ومخالفتهم لمنهج الله تعالى .



النهي عن تركية النفس

يقول الحق عز وجل : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٤٩] والتركية كما نعرفها هي التطهير والنماء ومنها أخذت كلمة « الزكاة » والتطهير يزيل الأقدار ، والنماء يُربي المادة فتتمو .
إذن .. فالتركية تعنى عدم وجود أقدار . ووجود النماء يأتي بعد التطهير ، فلا نأتى لقدر ونطالب بنموه لأنه إن نما فهو ينمو بقدارته .

إذن .. لا بد له إذا أراد أن ينمو من الطهر . لذلك فإن درء المفسدة مقدم دائماً على جلب المصلحة ^(١) .

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ ﴾ ماذا قالوا تركية لأنفسهم ؟

لقد قالوا : ﴿ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا اللَّهَ ﴾ [المائدة : ١٨] وقالوا : ﴿ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا ﴾ [البقرة : ١١١]

(١) قاعدة فقهية مشهورة .

إنهم يقومون بتزكية أنفسهم والإنسان منهى أن يُزكى نفسه .
والتزكية تقتضى تطهير النفس من العيب وعطاء الإنسان
نفسه نماءً ونظافة فماذا إن كانت التزكية حقاً ، أُمْنوع أن
يزكى الإنسان نفسه ؟

إن التزكية التى قاموا بها لأنفسهم كأهل كتاب كانت
تزكيةً باطلة فليس حقيقى أن لله أبناء .. تعالى الله عن ذلك
علواً كبيراً ، وليس حقيقياً أن الجنة لن يدخلها إلا هم .
إذن .. الممنوع هو أن يزكى الإنسان نفسه بالباطل لكن إذا
كانت التزكية بحق وتطلب فى وقت من الأوقات التى لا
تحتمل التجربة . مثال ذلك عندما تتركب جماعة زورقاً ويكون
القائد الذى يجدف ، أى : يمسك الشراع ، متوسط الموهبة ثم
قامت عاصفة شديدة ، لا يقوى متوسط الموهبة على القيادة
معها ، فإذا كان هناك إنسان يجيد فن قيادة الزوارق أثناء
العواصف عليه أن يتقدم ويقول لمتوسط الموهبة : ابتعد عن
القيادة فأنا أكثر فهماً منك ويزحزحه ويمسك القيادة بدلاً منه ..
هذه تزكية للنفس وهى مطلوبة لأن الوقت ليس وقت تجربة ،

ثم هو يزكى نفسه بحق ، كما إن العمل الذى هو مقبل عليه سيفضحه إن لم تستقر المسائل على حسن قيادة .

إذن .. هناك فرق بين التزكية بالباطل وبين التزكية بالحق ومن أوضح أمثلة التزكية بحق حينما زكى سيدنا يوسف عليه السلام نفسه لعزیز مصر ، وقال له : ﴿ أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلَيْكُمْ ﴾ [يوسف : ٥٥] لأن الوقت ليس وقت تجربة وكذلك سيدنا محمد ﷺ عند قسمته لغنائم حُنَيْنٍ حينما سأله أحد المنافقين أن يعدل فقال ﷺ : « ومن يعدل إذا لم أكن أعديل » (١) .

○ ○ ○

(١) أخرج مسلم [١٠٦٣/١٤٢] عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنهما ، قال : أتى رجل رسول الله ﷺ بالجعرانة منصرفة من حنين ، وفى ثوب بلال فضة ، ورسول الله ﷺ يقبض منها ، يعطى الناس ، فقال : يا محمد اعدل . قال : « ويلك ومن يعدل إذا لم أكن أعديل ؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعديل ... » . وأخرج البخارى [٣٦١٠] عن أبى سعيد الخدرى بنحوه ، وكذلك مسلم [١٠٦٤/١٤٣] .

الرحمة واللين في النصيح

قال الله تعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] مجيء « ما » في قول الحق : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَأْمُرْ بِهِ لَكُنَّا مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ يدل على أنها أمر لا يمكن أن يدرك كنهه ، فدخل تحت الإبهام بـ « ما » لأن الشيء إذا كان لطيفاً دقيقاً فإن الإدراك يقصر عنه .

هذه الآية نزلت عقب أحداث حدثت في غزوة أحد منها : الحدث الأول : أن الرسول ﷺ رأى ألا يخرج إلى القوم بل يظل في المدينة فأشار عليه المحبون للشهادة والمحبون للقتال والمحبون للتعويض عما فاتهم من شرف القتال في بذل أن يخرج إليهم فنزل رسول الله ﷺ على رأيهم ولبس « لأمته » فلما أحسوا بأنهم أشاروا على رسول الله بما يخالف ما كان قد بدا منه ، تراجعوا وقالوا : يا رسول الله إن رأيت ألا تخرج

فلا تخرج فقال ﷺ : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » (١) فما دام قد استعد للحرب فقد انتهت المسألة .

(١) ذكره ابن هشام في السيرة [٨،٧/٣] .

وروى البيهقي في السنن الكبرى [١٣٢٨٢] ، ودلائل النبوة [٢٠٥،٢٠٤/٣] عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال : تنفل رسول الله ﷺ سيفه ذا الفقار يوم بدر . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : وهو الذي رأى فيه الرؤيا يوم أحد وذلك أن رسول الله ﷺ لما جاءه المشركون يوم أحد كان رأيهم أن يقيم بالمدينة فيقاتلهم فيها ، فقال له ناس لم يكونوا شهدوا بدرأ : تخرج بنا يا رسول الله إليهم نقاتلهم بأحد ورجوا أن يصيبوا من الفضيلة ما أصاب أهل بدر ، فما زالوا به حتى لبس أدواته ثم ندموا ، وقالوا : يا رسول الله أقم فالرأى رأيك ، فقال رسول الله ﷺ : « ما ينبغي لنبي أن يضع أدواته بعد أن لبسها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه » .

قال : وكان مما قال لهم رسول الله ﷺ يومئذ قبل أن يلبس الأداة : « إني رأيت أني في درع حصينة فأولتها المدينة وإني مردف كبشاً فأولته كبش الكتيبة ، ورأيت أن سيفي ذا الفقار فل فأولته فلا فيكم ، ورأيت بقرأ تذبح فقير والله خير =

الحدث الثاني : تخلف عبد الله ابن أبي رأس المنافقين بثلاث الجيش .

الحدث الثالث : مخالفة الرماة عن أمره عليه السلام وتركوا مواقعهم رغم أنه حذرهم من ذلك ، وقال : « إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا أما كنكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم

فبقر والله خير » .

رواه الحاكم في المستدرک [١٢٩/٢] وصححه ، وواقفه الذهبي .
وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال : استشار رسول الله عليه السلام الناس يوم أحد فقال : إني رأيت فيما يرى النائم كأنني في درع حصينة وكان بقرا تُنحر وتباع ففسرت الدرع : المدينة ، والبقر : بقرأ والله خير ، فلو قاتلتموهم في السكك فرماهم النساء من فوق الحيطان ، قالوا : فیدخلون علينا المدينة ؟ ما دخلت علينا قط ولكن نخرج إليهم . قال : فشأنكم إذا قال ثم ندموا . قالوا رددنا على رسول الله عليه السلام رأيه ، فأتوا النبي عليه السلام فقالوا يا رسول الله : رأيك . فقال : « ما كان لنبي أن يلبس لأمته ثم يخلعها حتى يقاتل » .
السنن الكبرى للبيهقي [٧٦٤٧/٣٨٩/٤] .

وأوطأناهم ، فلا تبرحوا أما كنكم ، ولكنهم خالفوا عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم (١) .

الحدث الرابع : فرارهم حينما قيل : قُتل رسول الله ﷺ .

الحدث الخامس : أنه حين كان يدعوهم صلى الله عليه عليه

وسلم فروا لا يلوون على شيء .

كل هذه الأحداث كادت تترك في نفسه ﷺ أثراً فنزل

قول الله سبحانه وتعالى : ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَهُمْ ﴾

معنى ذلك أن الله يقول لرسوله أنا طبعتك على رحمة تتسع

لكل هذه الهفوات ، والرحمة مني ، وما دامت الرحمة موهوبة

منى فلا بد أنى جعلت فيها طاقة تتحمل كل مخالفة من أمتك

ومن أتباعك ولا تظن يا محمد إنك أرسلت إلى ملائكة إنما

أرسلت إلى بشر ، والبشر خطأون ، إن البشر من أهل الأغيار

فلهذا اجعل المسألة درساً ، وأنا فطرتك على الرحمة وأنت

بذاتك طلبت منى كثيراً لأمتك ، فكلما هموا بك بسوء أقول

لك أطبق عليهم الأخشبين فتقول : « بل أرجو أن يخرج من

(١) أخرجه البخاري [٢٨٧٤] وأحمد في المسند [٢٩٣/٤] من

حديث البراء بن عازب رضي الله تعالى عنه .

أصلاً بهم من يعبد الله لا يشرك به شيئاً ، ^(١) وكلما يأتي أمر فأنت يا محمد رحيم بهم وأنا أطلب منك بالرحمة التي أودعتها في قلبك ، بهذه الرحمة لنت لهم يا محمد ، وبهذه الرحمة التفوا حولك ، التفوا حولك لأدبك الجم ، لتواضعك الوفير ، لحسن خلقك ، لبسمتك الحانية ، لنظرتك المواسية ، لتقديرك لظرف كل واحد حتى إنك إذا وضع أى واحد منهم يده فى يدك لم تسحب يدك أنت حتى يسحبها هو ^(٢) ، هذا هو الخلق العالى وكل ذلك أنا أجعله حيشة لتنازل عن كل هذه الهفوات وليسعها خلقك ، وليسعها حلمك لأنك فى دور التربية والتأديب .

والتربية والتأديب لا تقتضى أن تغضب لأى بادرة تبدر منهم وإلا ما كنت مريئاً ومؤدباً ﴿ فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ إِنَّكَ لَهُمْ وَلَوْ

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [٣٢٣١] ، ومسلم [١٧٩٥/١١١] عن عائشة رضى الله تعالى عنها .

(٢) تأسيساً بالنبي ﷺ فى الحديث الذى رواه أبو داود [٤٧٩٤] عن أنس رضى الله عنه ؛ وفيه : « .. وما رأيت رجلاً أخذ بيده فترك يده ، حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده » . وحسنه الألبانى .

كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَا تَفْضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴿ [آل عمران : ١٥٩]
لماذا ؟ لأنك يا محمد تخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية ،
والذى يُخرج واحداً عما ألف لا يصح أن يجمع عليه إخراجه
عما اعتاد والأسلوب الخشن اللفظ ، لأنه فى حاجة إلى التودد
والرحمة ، لا تجمع يا محمد عليهم الأمرين .

ولذلك يقولون فى الذى ينصح إنساناً يقولون له : إن النصيح
ثقيل لأن النصيح معناه تجريم الفعل فى المنصوح ، فتقول
للمنصوح وأنت فى موقف الناصح : لا تفعل هذا الأمر ، وهذا
معناه أن ذلك الفعل ردىء ، وما دمت وأنت ناصح لآخر تجرم
له فعلاً فلا تجمع عليه أمرين : الأول : أنك تقبح فعله ، والثانى :
أنك تخرجه مما ألف بأسلوب يكرهه .

ونحن نستعمل هذا الأسلوب فى ذوات أنفسنا حين نجد
مرضى يحتاج إلى العلاج بالدواء المر نغلف العلاج المر بطبقة
حلوة الطعم بحيث يمر من منطقة الذوق بلا ألم وحتى ينزل
إلى المعدة فلا تحس بهذه المرارة ، لأن الاحساس كله فى الفم
بالنسبة للمواد المتناولة من خلاله لذلك نغلف الدواء بطبقة

ناعمة الملمس وحلوة الطعم غالباً حتى يمر من منطقة الفم والبلعوم التي فيها الإحساس بالتذوق إلى المعدة حيث لا إحساس بالمرارة ... فإذا كنا نفعل ذلك في الأمور المادية فلا بد أن نفعل مثل ذلك في الأمور المعنوية ، لماذا ؟ لأن النصيح ثقيل ، فلا تجعله جديلاً ، ولا ترسله جبلاً .

إن الحقائق مُرة فاستعبروا لها خِفة البيان ، إن خِفة البيان هي التي تؤدي الغرض بدون استشارة وبدون إثارة وبلفظ يحمل على التقبل ، إن المعنى الذي تريد أن توصّله واحد ولكن المهم هو اختيار الأسلوب .. مثال ذلك ، أن رجلاً رأى رؤيا تتلخص في أن أسنانه كلها وقعت ، فجاء لمفسر الأحلام وقص عليه ما رأى فقال له المفسر : إن أهلك جميعاً يموتون ، لقد ألقى في وجهه بقدر هائل من الألم البالغ باختيار هذه الكلمات التي تعبر بخشونة عن معنى ما .

ثم ذهب نفس الرجل إلى مفسر أحلام آخر ، فقال المفسر : ستكون أطول أهل بيتك عمراً . لقد اختار المفسر الثاني أسلوباً راقياً في نقل الحقيقة الواحدة فما دام صاحب الرؤيا هو أطول

أهل بيته عمراً فمعنى ذلك أنهم سيموتون قبله . إنه معنى واحد ولكن بأسلوبين مختلفين .

وقول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ . [آل عمران : ١٥٩] .

إذن .. فبالرحمة لنت لهم يا رسول الله ، وبلين القلب اتبعوك وَالْفُوكُ وَأحبوك ، وعندما نقف عند كلمة : ﴿ فَظًّا ﴾ فإننا نجد أن الفظ هو ماء الكرش فالإبل مجهزة بقدرة الله سبحانه وتعالى أن تشرب من الماء ما تحتاج إليه لمدة طويلة ، وتخزن من هذا الماء في كرشها ، حتى عندما تعطش ولا تجد ماءً فإنها تأخذ من هذا الماء المخزون ليرويها ، ونحن نعرف أنه في إحدى الغزوات ذبح المقاتلون بعضاً من الإبل ليأخذوا الماء من كرشها .

ومياه الكرش هذه عادة ما تكون : غير جيدة الطعم ، وآسنة قليلاً ، وشرب مثل هذا النوع من الماء يولد غضاضة في النفس لذلك سمي بالفظاظة لخشونة هذا النوع من المياه ، وأطلق العرب كلمة فظاظة على خشونة القول ، وغلظ القلب هو الذي تنشأ منه خشونة الألفاظ .

قوله سبحانه : ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْتَفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] إن هذا القول مقدمة توضح للرسول الكريم ﷺ ما أراه الله له وكأن الحق يقول : إنها الرحمة التي طُبعت عليها مِنِّي وظهر أثر ذلك في إقبالهم عليك وحبهم لك ، لأنك لو كنت على نقيض ذلك لما وجدت أحداً حولك .. إذن فالشواهد تثبت أن هذه الرحمة وهذا اللين طبعه الحق تبارك وتعالى في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وفطره عليه ^(١) .



(١) ولقد امتدحه رب العزة سبحانه في القرآن العظيم فقال : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] .
ووصفه سبحانه وتعالى بأنه : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ .
[التوبة : ١٢٨] .

الصحة بالمعروف لغير المؤمن

بعض المستشرقين حاولوا جاهدين أن يعثروا على ثغرة ينفذون منها ليفرّقوا بين المسلمين ودينهم ، وأن يروجوا لزعمهم الباطل بأن هناك تعارضاً بين آيات الكتاب الكريم . وارتدى بعضهم مشوح العلم المحايد ، وامتلات قلوبهم بسوء النية ، وغاب عن عقولهم حسن الإدراك فقالوا : إن بعض الآيات القرآنية تتعارض ، والسبب الذي يجعل المسلمين يغفلون عن ذلك التعارض بزعمهم هو إنهم ينظرون إلى القرآن بقداسة ، ولولا هذه القداسة لأمكنهم اكتشاف التعارض في آيات القرآن !!

هؤلاء المستشرقون لما قرأوا الآية الكريمة التي يقول فيها الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفٌ وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ تَمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ

تَعْمَلُونَ ﴿ [لقمان : ١٥] حاولوا بسوء القصد والنية أن يوهبوا
أذنابهم أن هناك تعارضاً بينها وبين قول الحق سبحانه : ﴿ لَا يَجِدُ
قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ
وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ
عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ
بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ
فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ
حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . [المجادلة : ٢٢] .

إن بعض المستشرقين يحاولون أن يروجوا لفكرة التعارض بين
قول الحق : ﴿ وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان : ١٥] من
سورة لقمان وبين قوله : ﴿ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ
كَانُوا آبَاءَهُمْ ﴾ [المجادلة : ٢٢] طعنًا في هذا الدين
وحسدًا من عند أنفسهم .

إن الفهم الصحيح لقول الحق سبحانه : ﴿ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى
أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبَهُمَا فِي

الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ
فَأَنبِئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿ لقمان : ١٥ ﴾ هو أن الله تعالى
يأمر الابن أن يصاحب والديه بالمعروف ، ولا يطيعهما في
دعوتيهما له بالشرك بالله ، بل يأمره أن يتبع طريق التوحيد
والإخلاص ، وأن مرجعهم جميعاً هو وهما إلى الله تعالى بما
فعلوا من خير أو شر ، وأن الله سبحانه هو الذى سيجزى كل
إنسان جزاء عمله .

ومعلوم أن الصحبة بالمعروف سواء مع الوالدين أو غيرهما
أمرٌ مختلفٌ عن الودِّ بالقلب ؛ فالمعروف فعل الجوارح ، أما
الود فهو فعل القلب .

إن الصحبة بالمعروف أمرٌ يصنعه الإنسان مع من يحبُّ ومع
من لا يحب ، أما الودُّ فلا يصنعه الإنسان إلا مع من يُحب ،
واقراً قول الحق : ﴿ لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ
يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ
أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ
حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾ [المجادلة : ٢٢] . هذه
الآية الكريمة توضح أن القوم المؤمنين بالله واليوم الآخر ليس
بينهم وبين من يعادى الله ورسوله ويصد عن دينه مودة قلبية ،
ولا موالاة ، ولا نصرة ، حتى ولو كانوا من آبائهم أو إخوانهم
أو أبنائهم أو أقاربهم ، وهذا لا يمنع من معاملتهم بالمعروف ،
وإعطاء كل ذي حق حقه ، فهذا شيء ، والنصرة فى الدين
والموالاة فى الله تعالى شيء آخر (١) .

إن المؤمنين لا يوالون من حادَّ الله ورسوله ؛ لأن الحق ثبت
قلوبهم على الإيمان وأيدَّهم بقوة منه وجعل لهم جزاء ذلك
جنات لا ينقطع فيها النعيم عنهم لأنهم أحبُّوا الله فأحبَّهم الله ،
وهكذا نفهم الفرق بين « الصحبة بالمعروف » وبين « الود » .

(١) قال الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ
أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

ثم إن الصحبة بالمعروف أمرٌ لا يتطلبُ الحب ، ولكن
يتطلبُ المعاشة ، وإن المؤمن بسلوكه مع مَنْ حوله قدوةٌ تنيرُ
قلوبَ الضالين إلى الهداية . فإن آمن الضالُّ فللمؤمن ثوابُ
إيمانه ، وإن لم يؤمن الضالُّ فللمؤمن الثوابُ أيضًا لأنه عايشُ
الضالِّ دون أن يتأثر بدعوة الضلال ، أو أن يحيد عن منهج
الحق سبحانه حتى ولو جاءت هذه الدعوة من أبيه أو أمه أو
أقاربه . إن المؤمن لا يساوم على إيمانه ، لذا فلا مودة بينه وبين
من عادى الله ورسوله ، وأوضح الأمثلة على ذلك يوم بدر
حينما قال عبد الرحمن بن أبي بكر رضى الله تعالى عنهما
لأبيه بعد أن أسلم : « لقد رأيتك يا أبى يوم بدرٍ ولكنى لويتُ
عُنقى عنك ، فقال له سيدنا أبو بكر رضى الله تعالى عنه : والله
لو رأيتك لقتلتُك ^(١) .

(١) رواه الحاكم في المستدرک [٤٧٥/٣] ولفظه : قال عبد الرحمن
ابن أبى بكر لأبى بكر رضى الله تعالى عنهما : قد رأيتك يوم
أحد فصفحت عنك ، فقال أبو بكر : لكنى لو رأيتك لم
أصفح عنك .

والذين يبحثون في فلسفة الدين يقولون إن الاثنين على حق
لأنَّ عبد الرحمن قارن بين أيه والأصنام ، أما سيدنا أبو بكر
فقارن بين ابنه وربه ، فوجد أن الله تعالى أعز عليه من ابنه ،
والاثنان منطقيان .

وكذلك حينما رأى سيدنا مصعب بن عمير أخاه أسيراً في
يد أحد الصحابة فقال للصحابي : اشدد على أسيرك فأمه غنية
وستفديه بمال كثير .



الرضا بالقضاء يرفعه

لا يُرفع قضاء من الله على خلقه إلا بعد أن يستسلم الخلق للقضاء ، والذين يُطيلون أمد القضاء على أنفسهم هم الذين لا يرضون به ، ولا يوجد إنسان أُجرى عليه قضاء كمرضٍ مثلاً فرضي به واعتبر ذلك ابتلاءً من الله تعالى ، فصبر لذلك واحتسب ، إلا ورفع الله تعالى عنه المرض ، بل وجزاه خير الجزاء على صبره واحتسابه .. كيف ؟

إن الإنسان بالصحة يكون مع نعمة الله ، ولكنه بالمرض يكون مع الله تعالى . فقد روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله عز وجل يقول يوم القيامة : يا ابن آدم مرضت فلم تعدني .

قال : يا رب كيف أعودك وأنت رب العالمين ؟
قال : أما علمت أن عبادي فلاناً مرض فلم تغده ؟ أما علمت أنك لو عُدتّه لوجدتني عنده ؟ » (١) .

(١) رواه ابن حبان في صحيحه [٧٣٩٩] وقال الأرنؤوط :

إسناده صحيح على شرط مسلم .

مَنْ إِذْنٌ يَجْرُو عَلَى الزُّهْدِ فِي مَعِيَةِ اللَّهِ ؟ إِنْ الْمَرِيضُ عِنْدَمَا يَعْرِفُ أَنَّهُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي يَتَأَوَّهُ مِنْهُ هُوَ فِي مَعِيَةِ اللَّهِ لَا اسْتَحْيَا أَنْ يَقُولَ : « آه » وَلِرَغْبٍ إِلَى رَبِّهِ وَمَوْلَاهُ وَحَمْدِهِ ، وَسَأَلَهُ الْعَفْوُ وَالْعَافِيَةُ .

ولذلك إذا رأيت إنساناً طال عليه أمد القضاء ، فاعلم أنه لم يرض بما وقع له ، ولو أنه رضى لرفع القضاء .
إذن .. لا يرفع قضاء حتى تكون نفس من ابتلى به راضية ، وما دام عدم الرضا موجوداً فالناس هم الذين يطيلون على أنفسهم أمد القضاء لأنهم لا يرضون به ، فإذا قال لك إنسان إنه راضٍ بقضاء الله وأن القضاء لم يُرفع عنه ، فاعلم أنه يقول ذلك بلسانه ولا يرضى قلبه بذلك وجاء في الحديث :
« ليس لابن آدم إلا ما قُدر له »^(١) .



(١) جزء من حديث أخرجه مسلم [٤٣/٢٥٦٩] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه .

ثمرة الرضا بقضاء الله

قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧] .
ما هو الضرر أولاً ؟ إن الضرر هو ما يصيب الإنسان ويخرجه عن استقامة حياته وحاله . فالإنسان عندما يعيش بغير شكوى أو مرض ويشعر بتمام العافية فهو يعرف أنه صحيح البدن ، لكن ساعة يؤلمه عضو من أعضاء جسمه فهو يضع يده عليه ويشكو ويفكر في الذهاب إلى الطبيب .

إذن .. فاستقامة الصحة بالنسبة للإنسان هي رتبة عمل كل عضو فيه بصورة لا تلفته إلى شيء . ويلفت الحق أصحاب النعم إلى شكره سبحانه ، فعندما تسير في الشارع وترى إنساناً فقد ساقه فأنت تقول « الحمد لله الذي عافاني مما ابتلى به كثيراً من خلقه » ^(١) لأنك سليم الساقين وهكذا تعرف أنك

(١) روى ابن ماجه [٣٨٩٢] والترمذى [٣٤٣١] عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « من =

لا تدرك نعمة الله في بعض منك إلا إذا رأيتها مفقودة في سواك .. وهكذا تعلم أن من الآلام والآفات منبهات للنعم. وأيضاً نجد أن منغصات الحياة قد تصيب الإنسان حين يتصور أنه لم يأخذ حظه من نعم الله ، فيقول لحظتها : يا مفرج الكرب يا رب ، ولذلك حين نجد الإنسان يقول : « يا رب » ، نعرف أنه يفرع إلى الله ، ولذلك قالها الله عن الإنسان : ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [يونس : ١٢] وذلك يعنى أن الإنسان إذا ما أصابه مكروه فهو يلجأ إلى الله ، ولا يملُ دعاء الله على كل حال سواء أكان الإنسان مضطجعاً ، أو قاعداً ، أو قائماً . وعندما يكشف الحق عنه الضر قد ينصرف عن الدعاء ويعيش رتابة النعمة ، وينسى المنعم سبحانه ، وكأنه لم يدع الله

= فَجِئَتْهُ صَاحِبُ بَلَاءٍ فَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي عَافَانِي مِمَّا ابْتَلَاكَ بِهِ وَفَضَّلَنِي عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ خَلْقٍ تَفْضِيلًا ، عَوْفَى مِنْ ذَلِكَ الْبَلَاءِ كَأَنَّمَا كَانَ ، ، وَقَالَ الْأَلْبَانِي : صَحِيح .

سبحانه إلى كشف ما به من ضرر ، وهذا هو سلوك المسرفين على أنفسهم ، إن النفس - أو الشيطان - تزين للعاصي بعد ما يكشف الله ما به من ضرر ، أن الذى كشف الضرر هو مهارة الطيب الذى لجأ إليه ! غافلاً عن أن مهارة الطيب هي نعمة من نعم الله تعالى ؛ أو ينسب أسباب خروجه من كربته إلى ما آتاه الله من علم أو مال ، غافلاً عن أن الله سبحانه هو واهب كل شيء ، كما فعل قارون الذى ظن أن ماله قد جاءه من تعبته وكذبه غافلاً أن الحق هو مُسبِّب كل الأسباب ، ولو كان ذلك كذلك لاستطاع قارون أن يحافظ على ذلك المال بعلمه كما ادعى (١) .

إذن .. لولا الضرر ما علمنا العافية ، فالضرر يُلفت الإنسان إلى نعم الحق سبحانه وتعالى فى هذه الدنيا وإذا ما رضى الإنسان وصبر فإن الله يرفع عنه الضرر ، بل ويثيبه عليه .

(١) إشارة إلى قول الله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۖ أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِن قَبْلِهِ مَن قَبْلِهِ ۚ مِنَ الْقُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ .

والحق سبحانه وتعالى يعطينا نماذج على مثل هذا الأمر فما هو
سيدنا إبراهيم عليه السلام يتلقى الأمر بذبح ابنه الوحيد
إسماعيل عليه الصلاة والسلام ، يأتيه هذا الأمر فى رؤيا ،
ورؤيا الأنبياء حق ^(١) .. إنَّ على إبراهيم أن يذبح ابنه بنفسه .
وهذا ارتقاء فى الابتلاء ولم يلتمس إبراهيم خليل الرحمن عذراً
ليهرب من ابتلاء الله له ، لم يقل إنها مجرد رؤيا وليست وحياً
لقد جاءه الأمر بأشق تكليف وهو ذبح الابن ، ونرى عظمة
النبوة فى استقبال أوامر الحق فيتقبل خليل الرحمن الأمر عن
طيب نفس ورضا بالقضاء ، فيلهمه الله أن يُشرك ابنه
إسماعيل فى استقبال الثواب بالرضا بالقضاء ، قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا
بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ
فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى ۚ قَالَ يَتَّبِعُ أَفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ
اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ [الصافات : ١٠٢] امتلاً قلبُ إسماعيل بالرضا

(١) روى الطبرى فى التفسير عن قتاده فى تأويل قوله تعالى :
﴿ يَبْنَئُ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ ﴾ قال : رؤيا الأنبياء
حق ، إذا رأوا فى المنام شيئاً فعلوه .

بقضاء الله ولم ينشغل بالحقد على أبيه ولم يقاوم ولم يدخل
في معركة جدلية ، بل قال قول المؤمن الواثق بربه الراضى
بقضائه المستسلم لأمره : ﴿ يَتَابَعْتِ أَفْعَلُ مَا تُؤْمَرُ ﴾ .

لقد أخذ عليه السلام أمر الله بقبول ورضا ، ولذلك يقول
الحق سبحانه : ﴿ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ۝ وَنَدَيْتُهُ أَنْ
يَتَابِعِيهِ ۝ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ۝ إِنَّكَ
هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ۝ وَفَدَيْتُهُ بِذَبِيحٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [الصافات] .

لقد اشترك الاثنان في قبول قضاء الله ، واستسلم كل منهما
للأمر عن طيب خاطر ورضى ، أسلم إبراهيم كفاعل ، وأسلم
إسماعيل كمنفعل ، ورأى الله تعالى صدق كل منهما في
استقبال أمر الله ، وهنا نادى الحق إبراهيم عليه السلام : لقد
استجبت أنت وإسماعيل إلى القضاء ، وحسبكما هذا الامثال
ولذلك يجيء إليك وإلى ابنك التخفيف وجاء النداء بذبح عظيم
القدر جعله الله منسكاً من مناسك ذرية إبراهيم والذين آمنوا إلى
يوم الدين ، ليس هذا فقط ، بل ومكافأة عظيمة ، قال تعالى :
﴿ وَشَرَّزْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [الصافات : ١١٢] لقد
رفع الله عن إبراهيم القضاء وأعطاه الخير وهو ولد آخر .

إذن .. فتحن الذين نطيل على أنفسنا أمد القضاء بعدم قبولنا له ، لكن لو رضى الإنسان بقضاء الله واستقبله بالحمد ، لرفع عنه البلاء ، وجزاه الله عن صبره ورضاه خير الجزاء من مجريه قال تعالى : ﴿ وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ يَضْرِبْ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنعام : ١٧]

إن الله يعلم أن أياً من عباده لا يتحمل قوة الحق في الضر ولذلك يكون الضر في هذه الحالة مجرد مس ، وكذلك الخير إنما ينال الإنسان مس الخير فقط فكل الخير مُدْخَرٌ في الآخرة . لأن خير الدنيا إما أن يزول عن الإنسان أو يزول الإنسان عنه .

إن الإنسان في الدنيا مهما ارتقى في الابتكار والاختراع فهو لن يصل إلى كل الخير الذي يوجد في الآخرة ؛ ذلك أن خير الدنيا يحتاج إلى تحضير وجهد من البشر ، أما الخير في الآخرة فهو على قدر المقطبي الأعظم وهو الله سبحانه وتعالى .

إذن .. فكل خير في الدنيا هو مجرد مس خير لأن الخير الذي يناسب جمال وكمال الله لا يزول ولا يحول ولا يتغير وهو مُدْخَرٌ للآخرة . وعلينا أن نعلم أن كاشف الضر هو الله لا أحد غيره فالمرضى لا يشفى بمجرد الذهاب إلى الطبيب لكن

الطبيب يعالج بالمهارة الموهوبة له من الله والذي يُشفى هو الله .
 قال تعالى حكاية عن الخليل إبراهيم أنه قال : ﴿ وَإِذَا
 مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ ، إن الحق سبحانه وتعالى قد خلق
 الداء وخلق الدواء وجعل الأطباء مجرد جسور إلى الدواء ومن
 ثم إلى الشفاء لينعم على بعض عباده ببعض من المواهب التي
 خلقها الله في كونه ونحن نرى أن الطبيب المتميز يعلن دائماً
 أن الشفاء جاء معه لا به ويعترف أن الله أكرمه بأن جعل
 الشفاء يأتي على ميعاد من علاجه .

إذن .. فالحق هو الكاشف الحقيقي للضرر وهو القادر على أن
 يعطيك الخير (١) .

(١) أخرج مسلم [٦٩/٢٢٠٤] عن جابر رضى الله تعالى عنه
 قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لكل داء دواء
 فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل » .
 وروى أبو داود [٣٨٥٥] عن أسامة بن شريك رضى الله
 تعالى عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « تداووا فإن الله عز وجل لم يضع داء إلا وضع له دواء غير
 داء واحد الهرم » . وصححه الألباني .

التكامل والتعاضد سنة الله تعالى في خلقه

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأنعام : ١٦٥]
واللفتة هنا هي أن الله لا يريدنا أن نكون متساوين في المواهب ولكنه يريدنا أن نكون متكاملين فيها لماذا ؟ لأنه إذا كان الناس كلهم صورة مكررة لفسدت الأرض فلو أننا جميعاً أطباء أو قضاة أو مهندسون أو فلاحون ، ما استقام الكون ولكنه رفع بعضنا فوق بعض ، ومعنى ذلك أن بعضنا مرفوع وبعضنا مرفوع عليه . أى : أن كل واحد فينا مرفوع من جهة ومرفوع عليه من جهة أخرى حتى يتكاتف الناس لتكتمل الحياة ، والحياة لا تكتمل تفضلاً ولكنها لا بد أن تكتمل بالمصالح المرتبطة بعضها ببعض تفضل حاجة ، فلو أننا جميعاً مثلاً من خريجي الجامعة فلن نجد إنساناً يقبل أن ينظف الشارع ، أو يحمل القمامة

أو يقوم بإصلاح المجارى ولكن كون المسألة مرتبطة ببعضها البعض فإن هذه المسائل تأتي اضطراباً ، وهذه هي حكمة الخالق سبحانه للكون ، ولكننا لا نفهمها في كثير من الأحيان ! ولذلك فإننا مثلاً نقول على الذى لم يكمل إلا تعليمه الابتدائى ، أو الذى لم يأخذ حظاً من التعليم ، أنه فشل فى حياته ولم نلتفت إلى أن هناك مهمة فى الكون لا تحتاج إلا لحامل الابتدائية ، فهذا الإنسان الذى وصل إلى التعليم الابتدائى مُعَدَّ لمهمة فى الكون لا يقومُ بها غيره ؛ والإنسان إذا عَضَّ الجوعُ أو حاجة عياله فإنه يعمل أى عمل فإذا رضى بقضاء الله تعالى وقدره فتحَّ الله تعالى عليه فوصل رزقه من عمله إلى أضعاف رزق ذلك الذى تخرج فى الجامعة ، ليس هذا فقط بل يبارك الله تعالى له فيه ، ولذلك أقول دائماً « قيمة كل امرئ ما يُحسنه » وما دام يحسن عمله يكون إنساناً ناجحاً فى الكون ولو لم يُرضِ هذا النجاح بعض الناس . وهنا تظهر الحكمة فى أن بعضنا مرفوع على بعض ، فكل إنسان إذا نظرت إليه وجدته مرفوعاً فى شيء ومرفوعاً عليه فى شيء آخر

الشيء الذى هو مرفوع فيه يستفيد منه الكون كله ، والشيء الذى هو مرفوع عليه يستفيد هو من غيره ، وهكذا تتكامل المواهب وتعطى الكون الكمال والجمال الذى يجعلنا جميعاً نستفيد من كل المواهب فينا ، فالمهندس الناجح المرفوع على الناس فى فن الهندسة يبنى لنا جميعاً العمارات فنستفيد كلنا منه ، من يملك ومن يسكن ، وإذا احتاج هذا المهندس إلى بدلة أنيقة يلبسها فإنه يذهب إلى ذلك الإنسان الذى رفعة الله فى فن التفصيل فيستفيد من موهبته فى هذا الفن ليحصل هو وكل الناس على ملابس أنيقة ، فإذا احتجنا إلى أثاث فإننا جميعاً نذهب إلى ذلك الإنسان الذى رفعه الله فى فن النجارة وصناعة الأثاث .

وهكذا شاءت حكمة الخالق سبحانه أن يكون كل منا مرفوعاً فى شيء ومرفوعاً عليه فى شيء آخر ، حتى يستفيد الكون كله من مواهب البشر جميعاً ويصبح كل واحد منا قادراً على أن يستفيد من كل المواهب التى خلقها الله فى الكون .

والحق سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ ﴾ [الأنعام : ١٦٥] .

إذن .. فالمسألة فيها ابتلاء واختبار ، والاختبار هنا ليس اختبار علم فالله سبحانه وتعالى لا يغيب عن علمه شيء ، ولكنه اختبار لنكون شهداء على أنفسنا تماماً كالاختبارات التي تتم في الدنيا ، فالامتحانات التي تعقد في كل أنحاء الدنيا ليس هدفها أن يتعلم الأستاذ من التلميذ ، فالأستاذ هو الذي أعطى تلاميذه العلم فلماذا يختبرهم ؟ إنه يختبرهم حتى يكون كل واحد منهم شهيداً على نفسه ، لأنه لو لم تُعقد هذه الامتحانات لادّعى كل تلميذ سواء كان فاشلاً أو فالحاً أنه يستحق النجاح مع مرتبة الشرف .

إذن .. الحكمة من الامتحانات أن يكون كل إنسان شهيداً على نفسه فإذا ادّعى أنه يعلم وأنه ذاكر يأتون له بورقة إجابته فلا يستطيع المجادلة لأنه في هذه الحالة تكون أمامه القرائن والأدلة التي تجعله عاجزاً عن أن يجادل بالباطل ، ولذلك فإن ابتلاء الله لنا يكون اختبار إقرار علينا ، وليس اختبار علم الله

ليقول الله سبحانه وتعالى للإنسان لقد خلقتك وأعطيتك هذه
الموهبة وميزتك بها عن كل خلقى لتكاملوا وتتعاضدوا ،
فارض بما قسمته لك تكن أغنى الناس (١) .



-
- (١) روى الترمذى [٢٣٠٥] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه
قال ؛ قال رسول الله ﷺ : « من يأخذ عنى هؤلاء الكلمات
فيعمل بهن أو يعلم من يعمل بهن ؟ فقال أبو هريرة : فقلت :
أنا يا رسول الله ، فأخذ ييدى فعد خمساً ، وقال : « اتق
المحارم تكن أعبد الناس ، وارض بما قسم الله لك تكن أغنى
الناس ، وأحسن إلى جارك تكن مؤمناً » وأحب للناس ما
تحب لنفسك تكن مسلماً ، ولا تكثر الضحك ، فإن كثرة
الضحك تميم القلب » . وقال الألبانى : حسن .

التوكل على الله وحده

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [الرعد : ٣٠] الإنسان لا يسلم نفسه إلا لمن يثق في أنه أمين عليه ثم إنه لا يكتفى بأن يكون أميناً فقط ! فقد يكون أميناً وضعيفاً لا يقدر على الحماية ، فلا بد أن يكون أميناً وقوياً ، فإذا كان الإنسان يسلم قيادة نفسه إلى واحد يرى أنه أحكم منه، يعنى : أنه شهد لهذا الواحد بأنه أمين عليه ، وأحكم منه ، وأقدر على تنفيذ مطلوبه ؛ وإلا لو كان هذا الإنسان قوياً بذاته لما وُكِّلَ أحداً .

والرسول ﷺ فى دعوته لصناديد قريش ومواجهته لهم ، لقى منهم عنفاً شديداً وخصومة فاجرة ، فاتهموه ﷺ بأشياء هم أول من يعلم أنها ليست فيه ، فاحتكم إلى الله وفوض أمره إليه ، وحول الموقف كله بينهم وبينه إلى الله تعالى ، وقال : ﴿ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ وهذه شهادة منه ﷺ

بأن الله تبارك وتعالى هو القوى ، الأمين ، والحكيم ، ولم يقل
توكلت عليه لماذا ؟ لأن هناك فرقا بين : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ،
وتوكلت عليه .

توكلت عليه من الممكن أن نعطف أيضاً فنقول : وعلى
فلان وعلى فلان إنما : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ يعنى توكلت عليه
وحده لا أحد غيره ، ولذلك لا نقول : نعبدك يا الله ، ولكننا
نقول : ﴿ إِنَّا نَعْبُدُكَ ﴾ يعنى : نحصر العبادة فيه سبحانه
فلا تتعداه إلى غيره ، ولو أنها أخرت لجاز أن يعدلف عليها .
وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ يعنى لا توجد
مشاكسة ، هو إله واحد نأخذ الأمر منه وحده ، ونتوكل عليه
وحده ، ولذلك عندما تكون هناك إدارة وفيها رئيس وهذا
الرئيس أعطى هذا صلاحية وآخر صلاحية فتقول أنا ليس لى
إلا رئيس واحد لا آخذ أوامر إلا منه ، وهذا معناه أننى لا آخذ
أوامرى من أحد غير رئيس العمل فهذا المثل يفسر معنى الآية
الكريمة : بأنه هو إله واحد لا إله غيره آخذ منه أوامرى وحده
﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ [الرعد : ٣٠] .

الاحتساب

يقول الحق جل جلاله : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ﴾ ، أى : إن انصرفوا عنك ورفضوا الاستماع إلى منهج الله فإياك أن تعتقد أن الله ينصرك بمن اتبعك من المؤمنين ، بل اعلم أنه يكفيك أن الله معك ، فإن أعرضوا عنك فقل أمام الناس جميعاً : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ أى : يكفينى الله .

الحق سبحانه وتعالى لم يطلب من رسوله ﷺ أن يقول هذا فى نفسه ، ولكنه طلب منه أن يعلنها أمامهم جميعاً ، لماذا ؟ ليؤكد للدنيا كلها أنه لو تخلى الخلق جميعاً عن محمد عليه الصلاة والسلام فإن رب محمد قادر على أن ينصره دون مؤازرة من الخلق ، والإعلان هنا دليل قدرة الحق سبحانه وتعالى ، هذه القدرة التى تجعل محمداً عليه الصلاة والسلام يقولها بأعلى صوته : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ ﴾ لأنه لا إله إلا الله ، ولا يوجد فى كونه سبحانه قوة ولا قدرة تعلو قوته وقدرته تبارك وتعالى .

إذن .. فلا إله إلا الله أثبتت الألوهية لله ، ونفت الألوهية
عن غير الله ، فالتوحيد إيجاب وسلب ، إيجاب في أن الله
وحده هو الإله ، وسلب في أنه لا إله غيره ، تماماً كما بين قطبي
الكهرباء إذا لم يلتق السالب والموجب لا يسرى التيار ، ونحن لا بد
لنا أن نسلب الألوهية عن غير الله ثم نثبتها لله تبارك وتعالى .
وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا
هُوَ ﴾ [التوبة : ١٢٩] هو نفى للألوهية عن غير الله وإثباتها لله
سبحانه وتعالى ، لماذا ؟ لأن الناس ثلاثة أقسام :

- قسم : كافر يُنكر وجود الله سبحانه وتعالى .
- وقسم : مُشرك ينسب الألوهية لله ولغير الله سبحانه وتعالى .
- وقسم : مؤمن بأنه لا إله إلا الله .

إذن .. فالكفار يُنكرون وجود الألوهية ، والمشركون يشبّونها
لله ولغير الله ، والمؤمنون يؤكّدون أنه لا إله إلا الله ، فكأنك حين
تقول : لا إله إلا هو ، تكون قد أثبتت الألوهية لله وحده ، وأثبتت
أنه لا شريك له ، ونفيت كل أنواع الكفر والشرك بالله تعالى .

معية الله ثمرة من ثمرات الاحتساب والتوكل

من ثمرات قول المسلم : ﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] ،
معية الله تعالى ، ومعية الله جل جلاله تتطلب مرحلتين :
المرحلة الأولى : أن نأخذ بالأسباب التي خلقها الله في
الكون وأرشد خلقه إلى الأخذ بها .

المرحلة الثانية : إذا خذلتك الأسباب فاتجه إلى الله مُسَبِّبِ
الأسباب ، ولذلك قالوا : إذا احتاج الناس إلى الماء فعليهم أن
يذهبوا إلى البئر أولاً ، فإذا وجدوها قد جفت ذهبوا إلى بئر
أعمق منها ، فإذا وجدوها أيضاً قد جفت رفعوا أيديهم إلى
السماء طالبين من الله المطر ^(١) .

(١) قال الله تعالى : ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّكُمْ كَانَتْ عَلَيْهِ سُلُوكٌ ﴾ يُرْسِلِ

السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٣٠﴾ .

وعن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال : أتت =

= النبي ﷺ بواك ، فقال : « اللهم اسقنا غيثًا مغيثًا ، مريقًا مريقًا ^(١) ، نافعًا غير ضارٍّ ، عاجلاً غير آجل » ^(٢) . فأطبقت عليهم السماء .

وعن عائشة رضی اللہ تعالیٰ عنہا قالت : شكوا الناس إلى رسول الله ﷺ قحوط المطر ، فأمر بمنبرٍ ، فوضِعَ له في المصلی ، ووعد الناس يومًا يخرجون فيه ، فخرج رسول الله ﷺ حين بدا حاجب الشمس ، فقعد على المنبر ، فكبر ، وحمد الله عز وجل ، ثم قال : « إنكم شكَّوتمُ جذب دياركم ، واستخار المطر عن إبان زمانه عنكم ، وقد أمركم الله سبحانه وتعالى أن تدعوه ، ووعدكم أن يستجيب لكم » .

ثم قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ۝ مَلِكُ يَوْمِ الدِّينِ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ، يفعل ما يُريد ، اللهم أنت الله لا إله إلا أنت الغني ونحن الفقراء أنزل علينا الغيث ، واجعل ما أنزلت علينا قوة وبلاغًا إلى حين » . =

(١) أى : هنيئًا خصبًا .

(٢) رواه أبو داود [١١٦٩] ، والحاكم في المستدرک [٣٢٧/١] ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، وقال الألبانى : صحيح .

ولذلك لابد أولاً أن تستنفذ أسباب الله الممدودة إليك ، فلا
تردّ يد الله الممدودة إليك بأسبابه وتتجه إلى المسبّب إلا في

= ثم رفع يديه ، فلم يزل في الرفع حتى بدا بياض إبطيه ، ثم
حوّل إلى الناس ظهره ، وقلب - أو حوّل - رداءه وهو رافع
يديه ثم أقبل على الناس ، فنزل ، فصلى ركعتين ، فأنشأ الله
عز وجل سحابة فرعدت ، وبرقت ، ثم أمطرت بإذن الله
تعالى ، فلم يأت مسجده حتى سألت السيول ، فلما رأى
سرعتهم إلى الكنّ ؛ ضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه ،
وقال : « أشهد أن الله على كل شيء قدير ، وأنى عبد الله
ورسوله » (١) .

وعن عبد الله بن عمرو رضى الله تعالى عنه قال : كان رسول
الله ﷺ إذا استسقى قال : « اللهم اسق عبادك وبهائمك ،
وانشر رحمتك وأحيى بلدك الميت » (٢) .

-
- (١) رواه أبو داود [١١٧٣] ، وقال هذا حديث غريب ، إسناده
جيد . والحاكم في المستدرک [٣٢٨/١] وقال : صحيح على
شرط الشيخين ، ووافقه الذهبي . وقال الألباني : حسن .
(٢) رواه أبو داود [١١٧٦] . وقال الألباني : حسن .

حالة فشل الأسباب واضطرارك ، لذلك يقول الحق سبحانه
وتعالى : ﴿ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾ [النمل : ٦٢] .
والمضطر هو الذى استنفذ أسباب الله فى الأرضى ، ولم يبق
له إلا التوجه إلى الله مباشرة ، ضارعا إليه ، مستنجدا به ،
لذلك تجد بعض الناس يتعجل ويقول إنه دعا الله ولم يجبه ،
نقول له : إنك لم تستنفذ الأسباب . ويظن الناس أن الأسباب
وحدها تعطى ، وهذا أحد أهم أسباب تأخر الإجابة ، لذلك ..
لابد لكل إنسان أن يكون الله فى باله فى كل عمل ، ويعلم
أنه لولا توفيقه له ما رشد ، ولتعطلت الأسباب ، ولم تجبه
ولابد أن يكون قائما بأمره مخلصا له الدين ، ولا يعتقد أن
الأسباب تعطى بذاتها بل بقدرة الله ، ولذلك قد يأخذ الإنسان
بالأسباب كلها ثم يأتى ما يُفسد له النتيجة مثل : آفة زراعية أو
عاصفة ، أو أمطار غزيرة ، فتمنع الأسباب من العطاء ، ابتلاء من
الله تعالى ، وليلفتك إلى أن الأسباب وحدها لا تعطى ، وحتى
لا تغتر وتقول : ﴿ إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ﴾ [القصر : ٧٨] .

فأنت إذن .. مع أسباب الله تعالى أولاً تأخذ بها ، فإذا ما استفدتها لجأت إلى المسبب سبحانه مباشرة ، وإياك أن تدعو الله مثلاً إن كنت تلميذاً في مدرسة أن يوفقك للإجابة الصحيحة ، وأنت لا تذكر ولا تفتح كتاباً ، ولكن ذاكر وادع بالنجاح وبذلك يكون لك أكثر من رصيد في الحياة ، فإذا لم تعطك الأسباب ، كان لك سند من الله تعالى .

والتوكل عمل القلوب وليس عمل الجوارح ، فالجوارح تعمل والقلوب تتوكل ، على أننا لابد أن نلاحظ أن قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ إنك حين تتوكل على الله إنما تتوكل على ربك ورب هذا الكون الذي سخر لك كل شيء فيه ، حتى الأشياء التي فوق قدرتك كالشمس والمطر والرياح إلى آخر ذلك من قوى الكون المسخرة لخدمتك ، قال الله تعالى خلق لك ما تزرعه وما تركبه وما تأكله وما تشربه وجعل هذا الكون كله يعمل من أجلك ولذلك يطلب الحق سبحانه وتعالى من عبده المؤمن أن يقول دائماً مخلصاً من قلبه

﴿ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ
الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ [التوبة : ١٢٩] . وأن يطابق هذا القول
العمل فلا يقول ذلك بلسانه وينصرف بجوارحه لعمل لشيء
آخر ، أو يقول بلسانه ويهمل الأخذ بالأسباب التي سخرها له
رب العزة سبحانه وتعالى .



إخلاص التوكل

يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ إِن أَرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ [هود: ٨٨] .
أى : لا أريد إلا الإصلاح ؛ صلاح مجتمعكم وإصلاح أموركم بقدر استطاعتي والله لا يكلف نفساً إلا وسعها وقوله : ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ يريد الحق تبارك وتعالى أن يلفتنا بها إلى أن هناك فرقاً بين العمل وبين أن توفق في العمل قد تشغل جوارحك بأى عمل ليست فيه نية خالصة لله سبحانه وتعالى ، وفى هذه الحالة لا يأتيك التوفيق لأن الأعمال بالنيات ، ولا بد وأن تكون نيتك خالصة لله تعالى ^(١) .

وقوله تعالى : ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ حين تسمع إنساناً

(١) أخرج البخارى [١] عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه

قال : قال رسول الله ﷺ : « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه » .

يقول على الله توكلت ، قل له أتوكلت على الله وحده ؟ فإن قال لك وعليك أيضاً فاعلم أن مسألكه لن تقضى ^(١) .
 أما إذا توكل على الله وحده فلا بد أن يقضى الله له حاجته ،
 ذلك مثل الرجل الذى يدخل المسجد لأنه يريد أن يتكلم مع
 فلان الذى دخل إلى المسجد فى أمر من أمور الدنيا وساعة
 يحدث هذا يجب أن تقول له : إن شاء الله إن الله لن يقضى
 هذا الأمر ، تماماً كالذى جاء يبحث عن ناقته التى ضلت ، جاء
 يبحث عنها وينادى فى المسجد ، فقال له رسول الله ﷺ :

(١) لأنه فى هذه الحالة قد جعل ندًا لله تعالى ، وهو ما نهى عنه
 رسول الله ﷺ فيما يرويه ابن عباس رضى الله تعالى عنهما
 عند أحمد فى المسند [٢١٤/١] أن رجلاً قال للنبي ﷺ : ما
 شاء الله وشئت ، فقال له النبي ﷺ : « أجعلتنى والله عدلاً ؟
 بل ما شاء الله وحده » . وصححه الأرنؤوط .

وفى تاريخ بغداد [٤٢١٨/١٠٤/٨] عن ابن عباس رضى الله
 تعالى عنهما قال ؛ قال رجل للنبي ﷺ : ما شاء الله وشئت ،
 فقال : « أجعلتنى لله ندًا ؟ قل : ما شاء الله وحده » .

« لا ردُّ الله عليك ضالتك » ^(١) والذي جاء لعقد صفقة في المسجد قال له النبي عليه الصلاة والسلام : « لا أربح الله تجارتك » ^(٢) يؤخذ من ذلك : ألا نسحب الدنيا معنا داخل المسجد .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِلَيْهِ أُتِيبُ ﴾ أى أرجع إليه فالله سبحانه وتعالى هو البداية والنهاية بالنسبة لنا جميعاً ، وما دامت المسألة

(١) أخرج مسلم [٧٩/٥٦٨] عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه

قال : قال رسول الله ﷺ : « من سمع رجلاً ينشد ضالة في المسجد فليقل : لا ردها الله عليك فإن المساجد لم تبن لهذا » .

(٢) روى الترمذى [١٣٢١] وصححه الألبانى ، عن أبي هريرة

رضى الله تعالى عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : « إذا رأيتم من

يبيع أو يبتاع في المسجد فقولوا : لا أربح الله تجارتك ، وإذا

رأيتم من ينشد فيه ضالة فقولوا : لا رد الله عليك » .

قال : أبو عيسى حديث أبي هريرة حديث حسن غريب ،

والعمل على هذا عند بعض أهل العلم ؛ كرهوا البيع والشراء

في المسجد . وهو قول أحمد وإسحاق ، وقد رخص فيه

بعض أهل العلم فى البيع والشراء .

أن التوفيق بيد الله سبحانه وعليه التوكل وإليه المصير فأنت غير
محتاج إلى غير الله جل جلاله ، فأخلص النية ، وأصدق القول
والعمل ، وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ
فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ١١٠] .



رذيلة البخل

قال الله تبارك وتعالى : ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء : ٣٧] لقد جاء
بالمقابل للأريحية والجود وبسط اليد وهو البخل ، والبخل هو :
المشقة في الإعطاء فعندما يأتي الإنسان ليعطى شيئاً فهو يجد
في العطاء مشقة ، أما المؤمن فهو مرزوق ببسطة الكف
والأريحية ، أى : أنه يرتاح للمعروف .

والبخل الذى هو مشقة في العطاء قد يتعدى حتى يضمن هذا
البخل بالشئ الذى لا يضر بذله ولا ينفع منعه، ولكنها
النفس البخيلة التى لا ترغب في العطاء حتى ولو في ذات
نفسه ، وها هو الشاعر يصور البخل وهو يبخل على نفسه
وإذا كان إنسان ما قد يبخل على نفسه فكيف يجود على غيره .
إن الشاعر يذم واحداً اسمه عيسى وهو بخيل حتى على نفسه
فيما لا يضر بذله ولا ينفع منعه فيقول :

يُقْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وَلَيْسَ يَتَّقِ وَلَا خَالِدٍ
 فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تَنْفُسَ مَنْ مِنْخَرٍ وَاحِدٍ
 إنه بخيل إلى الدرجة التي يضئ بها على نفسه ، فلا يتنفس
 بفتحتي أنفه ، ولكنه لو استطاع أن يتنفس بفتحة أنف واحدة
 لمصلحة ما ، أو فائدة تعود عليه ، لفعل لو استطاع .
 وهناك شاعر آخر صور البخيل صورة تمنع عن هذا البخيل
 الأريحية والكرم فيقول :

لَوْ أَنَّ بَيْتَكَ يَا بَنَ عَمِّ مُحَمَّدٍ إِبْرَ يَضِيقُ بِهَا قَضَاءَ الْمَنْزِلِ
 وَأَتَاكَ يَوْسُفُ يَسْتَعِيرُكَ إِبْرَةً لِيَخِيطَ قَدْ قَمِيصِهِ لَمْ تَفْعَلِ
 إنه بخيل حتى بإبرة واحدة لو طلبها منه سيدنا يوسف عليه
 السلام الذي قَدْ قَمِيصه من دبر ، أثناء محاولة امرأة عزيز مصر
 مراودته عن نفسها ، فلن يعطيه .

إذن .. البخل هو أن يضيق الإنسان بالإعطاء ، حتى أنه
 يضيق بعطاء شيء لا يضره أن يذله ولا ينفعه أن يمنعه ، لذلك
 قال الحق سبحانه وتعالى عن البخلاء :

﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ

خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلِلَّهِ
 مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ وَاللّٰهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ [آل عمران : ١٨٠]
 إن الحق سبحانه يتوعد البخيل بطوق مما بخل به يطوق به عنقه
 فلو أن البخيل قد بذل قليلاً لكان الطوق خفيفاً حول رقبته يوم
 القيامة ، لكن البخيل كلما منع نفسه من العطاء ازداد الطوق
 ثقلًا .

لقد قال الحق أيضاً عن الذين يكتزون الذهب والفضة :
 ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ يَوْمَ يُخْمَىٰ عَلَيْهَا فِي
 نَارٍ جَهَنَّمَ فُتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا
 مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة : ٢١-٢٢]
 إذن .. فكلما زاد رصيدهم من كنز الذهب والفضة مع عدم
 الإنفاق في سبيل الله ، زاد وقود النار التي يحرقون بها ، والتي
 تكوى بها : الجباه ، والجنوب ، والظهور .

إذن .. فالإنسان عليه أن يخفف عن نفسه الكنى بما يكثر ،
 والبخلاء الذين بخلوا على أنفسهم ، وامتنعوا عن إعطاء الناس

من مال الله لا يكتفون بذلك ، بل يحبون أيضاً أن تتعدى إلى سواهم كأنهم عشقوا البخل ، فيؤلمهم أن يروا إنساناً جواداً فيقول البخيل للمنفق في سبيل الله لا تنفق .. لماذا ؟ حتى لا يكون هناك من هو أفضل منه .

إذن .. فالبخيل يعرف أن الكرم أفضل من البخل ، ولكنها نفسه الأمارة بالسوء .

والدليل أنه يطلب من الناس جميعاً أن يكونوا بخلاء ﴿ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [النساء : ٣٧] .

والبخل كما عرفنا ضئٌ بما آتاه الله للإنسان على من لم يؤت . والبخل ليس في المال فقط إنما هو في كل موهبة من المواهب ، فمن يَضِنُّ بموهبته على غيره فهو بخيل ، فالذى يبخل بقدرته على معونة العاجز عن القدرة بخيل ، والذى يبخل بما عنده من علم على من لا يعلم بخيل ، والذى يبخل حتى على السفية بالحلم بخيل ، فما دام الإنسان يملك طاقة من الحلم فلماذا لا يبذلها على تحمل السفية ؟

إذن .. البخل هو أن يمنع الإنسان شيئاً قد وهبه الله له عن واحد محتاج ومن الأمثلة على ذلك : البارع فى صنعة ما ثم يضمن بأسرارها على تلاميذه هذا لون من البخل .

وأشوأ أنواع البخل هو ما اقترفه هؤلاء الذين آتاهم الله الكتاب ، وعرفوا صفات الرسول ﷺ ، بل يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، فلما جاءهم ما عرفوا - وهو الرسول ﷺ - كفروا به وكنتموا ما عرفوا عن الناس .

وهكذا صارت موهبة العلم بالصادق المصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم أمراً مكتوماً عند هؤلاء ، وهذا بخل فى القمة ، وهم لا يكتفون بذلك بل يأمرؤن الناس بإنكاره ﷺ وعدم تصديقه ؛ ليس هذا فقط ، بل يقولون لهم أنتم أهدى منه سبيلا ، ونحن نعرف أن الأنصار من الأوس والخزرج الذين هاجر إليهم الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة ، هؤلاء الأنصار رضى الله تعالى عنهم كانوا يملكون الأريحية الإيمانية فساعة جاءهم المهاجرون من مكة ، آخوهم وقاسموهم المال ، حتى النعمة التى غرس الله فى قلب المؤمن الغيرة عليها من أن ينالها أحد

حتى ولو كان كارهاً لها ، وهى .. نعمة الزوجة ، حتى هذه
النعمة حاول بعض الأنصار أن يُطلق امرأة من زوجاته ليزوجها
إلى أخيه المهاجر ؛ ونحن نرى فى الحياة أن الإنسان قد يكره
زوجته ويكره أيضاً أن يطلقها أو أن يتزوجها أحد بعد طلاقها
ولكنه إثارة المؤمن لأخيه المؤمن (١) .

(١) أخرجه البخارى [٣٧٨١] عن أنس رضى الله تعالى عنه أنه قال :
قُلِمَ علينا عبد الرحمن بن عوف وأخى رسول الله ﷺ بينه
وبين سعد بن الربيع - وكان كثير المال - فقال سعد : قد
علمت الأنصار أنى من أكثرها مالاً ، سأقسم مالى بينى
وبينك شطرين ، ولى امرأتان فانظر أعجبهما إليك فأطلقها
حتى إذا حلت تزوجتها .
فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك . فلم يرجع يومئذ
حتى أفضل شيئاً من سمنٍ وأقط ، فلم يلبث إلا يسيراً حتى
جاء رسول الله ﷺ وعليه وَضْرٌ من صُفْرة . فقال له
رسول الله ﷺ : « مَهَيْم ؟ » قال : تزوجت امرأة من الأنصار
فقال : « ما سَقَتْ فيها ؟ » قال : وزنَ نواة من ذهب - أو نواة
من ذهب - فقال : « أولم ولو بشاة » .

والحق سبحانه وتعالى يُصعّد أريحية الأنصار ، حتى أن
الأنصارى يأتى بالمهاجر ويقول له : انظر إلى زوجاتى فما
بروقك منهن أطلقها وتزوجها .

إن الأنصارى المؤمن يضرب المثل فى الأريحية ، فالمؤمن
حين يكون فى نعمة فهو يحب أن يُعدى أثر نعمته على غيره ،
وهذا ارتقاء إيمانى فى ذوات الأنصار فحين استقبلوا المهاجرين
كانوا يعلمون أن المهاجرين تركوا وراءهم أموالهم ومساكنهم
ونسائهم وخرجوا مهاجرين إلى الله تعالى ورسوله ﷺ وكان
من بين هؤلاء المهاجرين شباب فيهم فتوة وأهاليهم محبوسون
فى مكة ولا يوجد مع المهاجر منهم زوجته ولذلك عمل
الأنصار على تزويج المهاجرين لينفسوا عن عواطفهم لأن أقل
ما فى ذلك أن يُعِفَّ الأنصارى أخيه المهاجر وهذا سدّ لباب
قد يدخل منه الشيطان .



عداوة الأخلاء

﴿ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ
قَرِينًا ﴾ [النساء : ٣٨] الحق سبحانه وتعالى يبين لنا في آخر هذه
الآية السبب الذى جمعهم على ذلك ؛ إنها أسباب متعددة
يجمعها كلمة : « شيطان » فكل من يمنع إنساناً من فعل الخير
فهو شيطان ، أو من فعل الشيطان . ابتداء من شهوات النفس ،
أو غفلة العقل عن المنهج ، أو قرين سوء يُزَيِّن للإنسان الفحشاء
أو شيطان يوسوس . كل ذلك نسميه « شيطان » ، أو من فعل
الشيطان ، لأنه يعد الإنسان عن المنهج وهناك شياطين الجن
وشياطين الإنس ، والنفس حين تُحَدِّث صاحبها بألا يلتزم
بمنهج الله تعالى فهى تغريه بالشهوات التى سيفقدها عند تقيده
بمنهج الله تعالى ، ونقول لصاحب هذه النفس : إنها شهوة
عاجلة أضاعت منك متعاً لا حدود لها آجلة .

إذن .. السبب الذى جعل هؤلاء ييخلون ويأمررون الناس
 بالبخل هو الشيطان ، لذلك يقول الحق سبحانه : ﴿ وَمَنْ
 يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴾ [النساء : ٣٨] .
 وساعة يكون الشيطان قريناً فهو مقترن بالإنسان ، ولذلك
 يسمون « القرن » بكسر القاف هو العدو الذى ينازله الإنسان
 ويسمون « القرن » بفتح القاف هو الزمن الذى يقرن جيلاً
 بجيل ، وعندما يكون الشيطان قريناً فهو إذاً مقترن بالإنسان ،
 ملازم له ، فبئس القرين هذا ، لماذا ؟ لأن القرين الذى لا
 يحض الإنسان على الخير بل يحضه على الانفلات من منهج
 الله وأتباع شهوات الغنى ، هو قرين سوء ، ولذلك كل الذين
 اجتمعوا فى الدنيا على معصية الله تعالى ستجدهم فى الآخرة
 أعداء ألداء ، وقرأ قول الحق تبارك وتعالى : ﴿ الْأَخِلَّاءُ
 يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف : ٦٧] .



البخيل ييسر للطائع طاعته !!

إن البخيل قد حرم نفسه من ماله وادخره .. فلمن ادخره ؟
إنه ادخره لبشر آخرين وما دام الادخار لأناس آخرين ، فهذا
يعنى أن رزق البخيل ضيق وهم الذين سيأخذونه .. فهم إذا
رزقهم هم أوسع منه .

والبخيل حين يكثر المال ويحافظ عليه فهو قد ييسر سبيلاً
لمن يُعطى ، ولنفرض مثلاً أن واحداً كان كريماً للغاية وكرمه لا
يدعه يتوارى من السائل ، والناس كلهم أمل فى مساعدته ،
ودخل هذا الكريم لم ينهض بتبعاته فإن كان يملك عددًا من
العمارات السكنية ، أو من الأرض ، فقد يضطر لبيع شيئاً مما
يملك لينفق منه ، وعندما يريد أن يبيع فسيشتري منه الذى
يكثر المال .

إذن .. البخيل هو الذى يدبر للمنفق ما ينفقه ، إنه ييسر سبيل
الطاعة للمحسن ، إن البخيل لن ييخل إلا على نفسه ، وكما
قلنا لصاحب السيئة : إياك أن تعتقد أنك اختلست شهوة من

اللَّهُ وَلَكِنَّكَ اخْتَلَسْتَ شَهْوَةً سَتَلْهَبُكَ حَتَّى تَفْعَلَ الْكَثِيرَ مِنَ
الْحَسَنَاتِ لِتَذْهَبَ السَّيِّئَاتِ كَمَا قَالَ رَبُّنَا سُبْحَانَهُ : ﴿ إِنَّ
الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ [هود : ١١٤] .
وَرَحِمَ اللَّهُ الْقَائِلَ : رَبِّ مَعْصِيَةٍ أَوْرَثْتُ ذُلًّا وَإِنْكَسَارًا خَيْرَ
مِنْ طَاعَةٍ أَوْرَثْتُ عِزًّا وَاسْتِكْبَارًا .

○ ○ ○

سبب البخل

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا ﴾ [الإسراء : ١٠٠] .
الخزائن هي : ما يحفظ فيها الشيء النفيس ، الذي له قيمة ،
قال تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴾ [الحجر : ٢١] أى : أن كل شيء عند الله تعالى موجود ،
وحيثما تحين ساعة ميلاده يبرزه إلى عالم المشاهدة ولذلك الحق سبحانه وتعالى حينما تحدث عن خلق السماوات والأرض ، قال سبحانه : ﴿ قُلْ أَيْنَكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيلِينَ ۝ ﴾ [فصلت : أى : أن الحق سبحانه قَدَّرَ أقوات المخلوقات جميعًا ووضعها في الأرض يوم أن خلقها .
والقوت هو : ما به استبقاء الحياة ، وهو ناشئ من الأرض التي تخرج الزروع والثمار .

إن الحق سبحانه وتعالى يعطى تصديقات من طموحات العلم فيجعل العلم يهتدى إلى أشياء ذكرها القرآن منذ نزوله قبل أربعة عشر قرناً من الزمان لذلك عندما حللوا عناصر الإنسان يوم حللوها وجدوها ستة عشر عنصراً رئيسياً ، بدأت بالأكسجين ثم الكربون والتروجين والهيدروجين والفوسفات والفوسفور والحديد والصدوديوم والفلور والكلور .. إلى أن وصلت إلى المنجنيز ، المهم أنها ستة عشر عنصراً رئيسياً . وبعد ذلك حللوا تربة الأرض التى تنبت الزرع فوجدوا أنها ستة عشر عنصراً رئيسياً أيضاً .

إذن .. الله سبحانه خلقنا من طين ويطعمنا من عناصر هذا الطين أيضاً وهذا ما أثبتته العلم لأن الزرع يخرج من الطين وفيه عناصر هذا الطين .. الذى خُلقَ منه الإنسان ولكن كيف يأتى هذا الطين وما طريقة تكوينه ؟ الطين يأتى من الجبال فالشمس تطفى بأشعتها على الجبال فتحدث فيها حرارة ، وبعد ذلك يأتى برد الليل فيحدث تشقّقاً فى هذه الجبال ، ثم يأتى المطر فيفتت مادة هذه الجبال ويجرفها معه إلى الوديان حيث تحمله

الأنهار وهو ما يسمى : الطمى أو الغرين ، وهى التى تخصب
التربة وتعطيها الطبقة الطينية التى ينبت فيها الزرع .
إذن .. الجبال هى مخازن الأقوات ، فحين يذكر الحق
سبحانه وتعالى البركة فى الأرض وتقدير الأقوات فيها بعد
ذكر الجبال فهو بذلك يعطينا تسلسل العملية ، ولو لاحظنا
تكوين الجبال والوديان لوجدنا الوادى هو منخفض بين جبلين ،
والجبال دائماً لها قمم فليس هناك جبل مسطح بدون قمة ،
هذه القمة مثل رأس المثلث ، والوادى على العكس مثلث
قاعدته فى أعلى ورأسه إلى أسفل ، فحين ينزل الطمى أو
الغرين من قمة الجبل ينزل فى الوادى فترتفع أرضه شيئاً فشيئاً
ولذلك فإن مدينة دمياط مثلاً كانت فوق البحر مباشرة ومع
استمرار تدفق الطمى مع فيضان النيل سنوات طويلة وسع
مساحة الأرض على ساحل البحر ولما امتنع الغرين بعد بناء
السد العالى وتوقف الفيضان بدأت هذه المساحات فى التراجع
والتآكل بفعل احتكاك مياه البحر بالأرض .

إذن .. قوله : ﴿ وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا ﴾ [فصلت : ١٠] كشف
الله تعالى لهم صدقه .. بمنطق العلم الحديث الذى يفهمونه ،
ولكن لأن الإنسان دائماً حريص وشحيح فحتى خزائن رحمة
الله مع عظم اتساعها وضخامتها والتى لا يعلم ما فيها إلا الله
تعالى ، لو ملكها سبحانه لهؤلاء الناس لأمسكوا عن الإنفاق
منها خشية أن تنفذ ، لأن الإنسان مجبول على أنه « قتور »
يخشى على ما عنده من النفاق حتى لو كان هذا الشيء هو
خزائن رحمة الله سبحانه وتعالى ، والتقتير يكون على النفس ،
والبخل يكون على الغير .



أسباب الشح

شح النفس سببه أن الإنسان لا يأمن على غده ، لذلك فهو يحاول إن كان يملك شيئاً أن يؤمن ذلك الغد فتجده يحافظ على ما عنده من حاجات ، لذلك سُنت قوانين الحياة والملكية والمتاعية ، ونشأت هذه الأشياء لا أقول من أول الخلق .. ولكن يوم أن ضاقت الأمكنة المعطية عن حاجات الناس ، ذلك أنه حين تكون الأمكنة المعطية تسع الحاجات فلا يكون هناك خوف من الغد ، مثال ذلك : لنفترض أن رجلاً اشترى صندوقاً من البرتقال فإذا ما قام ابن هذا الرجل وأخذ ببرتقالة أو اثنتين فلا يؤثر في الصندوق لأن به كمية كبيرة تكفى لذلك وتفيض ، ولكن لو هذا الرجل أحضر كيلو من البرتقال مثلاً فإنه في هذه الحالة يكون حريصاً على أن يقسم البرتقال بين أولاده ، ولا يترك كل ابن يأخذ على هواه .

وهكذا كان الأمر في بدء استخلاف الإنسان في هذه الأرض ، فمن أراد مساحة من الأرض أخذها واستعمرها

وأخرج ثمارها ، ومن أراد العمل ، ففي الأرض متسع لكل عامل لكن التميزات الملكية ظهرت حين بدأ النقص في هذه الأشياء فبدأت الحدود ، والقوانين .. إلخ . وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴾ [الرحمن : ١٠] .

والحق سبحانه وتعالى يأتي في هذه المسألة ويقول : ﴿ لَنْ نَسْأَلَهُ الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] والنفقة لو نظرت إليها نظرة واقعية حقيقية ، لوجدت أنك أيها العبد مضارب في خير الله ، ومعنى « مضارب » : أى أنك تعمل عند الله بالعقل الذى خلقه لك ، وتخطط بهذا العقل ، وتعمل عند الله بالطاقة التى خلقها الله ، والمادة التى خلقها الله لك تنفعل معها وهذا يعنى : أن كل شئ لله ، وأنت أيها الإنسان مجرد مضارب وما دمت مضارباً فأعط لله حقه ، وحق الله لا يأخذه هو ، فهو سبحانه أغنى الأغنياء ، إن حق الله يأخذه أخوك غير القادر على أن يتفاعل مع المادة ليكون مضارباً ، ولا تظن أيها العبد أن الله حين طلب منك النفقة مما تحب أن الله قد استكثر عليك ما وهبك فطلب منك أن تنفقه أو تنفق منه ، ولكن الله

حين يأخذ منك لأخيك وأنت قادر إنما يؤمنك سبحانه إن عجزت ، فسيأخذ لك من القادرين ليسد عجزك ويكفيك مؤنتك ، وذلك هو التأمين في منهج الله تعالى .

إن الحق يرغبنا في أن تنفق ، لكن بعض الناس يحاول أن ينفق مما لا فائدة منه عنده ، فيهدى مثلاً الثوب الذي بُلى ، ولم يعد صالحاً للاستعمال لفقير ، أو يعطي الخداء القديم لواحد محتاج ، أى : أن الإنسان لا ينفق إلا ما هو زاهد فيه ، الله يأمرنا بأن تنفق مما نحب لذلك انفعل صحابة الرسول صلى الله عليه وسلم حينما سمعوا هذا النص : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران : ٩٢] فهذا طلحة بن عبيد الله حينما يسمعها يقول يا رسول الله إن أحب مالى إلى هو « بثر حاء » فأنا أخرجه في سبيل الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اجعله في أقاربك » فجعله في أقاربه . وهذا زيد بن حارثة انفعل مع الآية الكريمة وكان عنده فرس اسمه « دنديل » وكان يحبه ، فقال يا رسول الله أنت تعلم

حبي لفرسى وأنا أنفقه فى سبيل الله ، فأخذه منه رسول الله ﷺ
 وجاء بأسماء بن زيد وأركبه الفرس ، فقال زيد : فوجدت فى
 نفسى ، أى : أنه حزن ، وقال زيد : يا رسول الله أنا أردت أن
 أنفق الفرس فى سبيل الله وأنت تعطى الفرس لابنى ليركبه .
 فقال رسول الله لزيد : « أما أن الله قد قبله منك » .
 ويتفعل سيدنا أبو ذر رضى الله تعالى عنه وكان عنده إبل
 لها فحل وهو ذكر قوى وكان هذا الفحل أحب مال أبى ذر
 إليه ، وجاء ضيف إلى أبى ذر فقال له : إبنى مشغول فاخرج
 إلى إبلى فاختر خيرها ليذبحه ، فخرج الضيف ثم عاد فى
 يده ناقة مهزولة فلما رآها أبو ذر قال : والله لقد خنتنى ،
 قلت لك : هات خير الإبل ، قال الضيف يا أبا ذر لقد رأيت
 خيرها فحلاً لك وقدرت يوم حاجتكم إليه ، فقال أبو ذر : إن
 يوم حاجتى إليه يوم أن أضع رأسى فى التراب .
 إن الصحابى الجليل أبا ذر يعرف أن يوم أن يوضع فى الحفرة
 هو اليوم الجليل الذى يستحق من المرء أن يستعد له .

وسيدنا عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما كان عنده
جارية جميلة من فارس وكان يحبها فلما سمع الآية .. قال :
ليس عندى أحب من هذه الجارية ، وأعتقها . فلما أعتقها
وكان من الممكن أن يتزوجها لكنه قال لولا أن ذلك يقدر فى
عتقها لتزوجتها .

وسيدنا أبو ذر رضى الله عنه يعطينا فى مسألة الإنفاق درساً
من أروع الدروس المستوعبة للملكة النفسية فيقول : فى المال
شركاء ثلاثة :

الشريك الأول : القدر لا يستأمر أن يذهب بخيرها أو
شرها من هلاك أو موت ، أى أن القدر لا يستأذن عبداً فى أن
يذهب المال حيث يريد ، فتأتى أى مسألة لتأخذ المال إلى
هلكة أو موت .

والشريك الثانى فى المال يوضحه لنا أبو ذر فيقول : الوارث
ينتظر إلى أن تضع رأسك ، ثم يشاقها وأنت ذليل ، إن
الوارث يقول لنفسه : « لأستمع بما ترك لى » .

والشريك الثالث فى المال : أنت ، فإن استطعت ألا تكون أعجز الثلاثة فلا تكن أعجزها . أى : إياك أن يغلبك على المال القدر أو الوارث ، إنما عليك أنت أن تغلب على مالك بإنفاقه فى سبيل الله وإلا لأخذ الشركاء منك المال .

إذن .. لقد انفعل صحابة رسول الله ﷺ بالآية حينما نزلت بصورة تبين عن مدى الخير المحبوب منهم إلى غيرهم وكان جزاء ذلك الجنة ^(١) .

(١) أخرجه البخارى [٤٥٥٥] عن أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال : كان أبو طلحة أكثر أنصارى بالمدينة نخلاً وكان أحب أمواله إليه « بيرحاء » وكانت مستقبلة المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ قام أبو طلحة فقال يا رسول الله ، إن الله تعالى يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن أحب أموالى إلى « بيرحاء » وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله . قال رسول الله ﷺ : « بخ ذلك مال رابع ، ذلك مال رابع ، وقد سمعت ما قلت وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين » . قال أبو طلحة :

= أفعَل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبنى عمه .
ورواه الترمذى [٩٩٧] ، والنسائى فى المجتبى [٢٣١/٦] ،
وأحمد فى المسند [١١٥/٣] ، وابن خزيمة [١٠٣/٤] ،
والبيهقى فى السنن الكبرى [٩٤/٤] ، وأبو يعلى [٤٦٣/٦] ،
والدارقطنى فى سننه [١٩١/٤] .

وروى الحاكم فى المستدرک [٣/٥٦١] عن ابن عمر رضى
الله تعالى عنهما قال : تَلَوْتُ هَذِهِ الْآيَةَ : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَقَّ تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ [آل عمران : ٩٢] فذكرت ما أعطانى
الله تعالى فما وجدت شيئاً أحب إلى من جاريتى رضية ،
فقلت : هى حرة لوجه الله عز وجل ، فلولا أنى لا أعود فى
شئ جعلته لله عز وجل لنكحتها ، فأنكحها نافع ، فهى أم
ولده .

وقال السيوطى فى الدر المنثور فى تفسير قول الله تعالى : ﴿لَنْ
نَنَالُوا الْبِرَّ حَقَّ تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ ، أخرج عبد بن حميد
عن ثابت بن الحجاج قال : « بلغنى أنه لما نزلت هذه الآية ﴿لَنْ
نَنَالُوا الْبِرَّ حَقَّ تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ﴾ قال زيد : اللهم إنك تعلم
أنه ليس لى مال أحب إلى من فرسى هذه فتصدق بها =

.....
= على المساكين . فأقاموها تباع وكانت تعجبه ، فسأل

النبي ﷺ فنهاه أن يشتريها .

وأخرج ابن جرير عن ميمون بن مهران أن رجلاً سأل أبا ذر
أى الأعمال أفضل ؟ قال : الصلاة عماد الإسلام ، والجهاد
سنام العمل ، والصدقة شىء عجيب .

فقال : يا أبا ذر لقد تركت شيئاً هو أوثق عملى فى نفسى لا
أراك ذكرته ! قال : ما هو ؟ قال : الصيام ! فقال : قرينة وليس هنا
وتلا هذه الآية : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا نَحِبُّونَ ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد عن رجل من بنى سليم قال : جاورت
أبا ذر بالربذة وله فيها قطيع إبل ، له فيها راع ضعيف فقلت :
يا أبا ذر ألا أكون لك صاحباً أكنف راعيك وأقتبس منك
بعض ما عندك لعل الله أن ينفعنى به ؟ فقال أبو ذر : إن
صاحبى من أطاعنى فإما أنت مطيعى فأنت لى صاحب وإلا فلا .
قلت : ما الذى تسألنى فيه الطاعة ؟ قال : لا أدعوك بشىء
من مالى إلا توخيت أفضله .

قال : فلبثت معه ما شاء الله ثم ذكر له فى الماء حاجة فقال :
اثنى بيعير من الإبل فتصفحت الإبل فإذا أفضلها فحلها =

.....
= ذلول فهممت بأخذه ثم ذكرت حاجتهم إليه فتركته وأخذت
ناقة ليس فى الإبل بعد الفحل أفضل منها فجئت بها فحانت
منه نظرة فقال : يا أخا بنى سليم خنتنى . فلما فهمتها منه
خليت سبيل الناقة ورجعت إلى الإبل فأخذت الفحل فجئت به
فقال لجلسائه : من رجلان يحتسبان عملهما ؟ قال رجلان :
نحن .

قال أما لا فأنيخاه ثم اعقلاه ثم انحراه ثم عدوا بيوت الماء
فجزئوا لحمه على عددهم ، واجعلوا بيت أبى ذر بيتا منها
ففعلوا . فلما فرق اللحم دعانى فقال : ما أدرى أحفظت وصيتى
فظهرت بها أم نسيت فأعذرك ؟ قلت : ما نسيت وصيتك ولكن
لما تصفحت الإبل وجدت فحلها أفضلها فهممت بأخذه
فذكرت حاجتكم إليه فتركته ، فقال : ما تركته إلا لحاجتى
إليه ؟ قلت : ما تركته إلا لذلك ، قال : أفلا أخبرك يوم
حاجتى ؟ إن يوم حاجتى يوم أوضع فى حفرتى فذلك يوم
حاجتى . إن فى المال ثلاثة شركاء : القدر لا ينتظر أن يذهب
بخيرها أو شرها ، والوارث ينتظر متى تضع رأسك ثم
يستفيئها ، وأنت ذميم ، وأنت الثالث فإن استطعت أن =

= لا تكونن أعجز الثلاثة فلا تكونن مع أن الله يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَّ حَقَّ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وإن هذا المال مما أحب من مالى فأحببت أن أقدمه لنفسي .

وأخرج أحمد عن عائشة قالت : « أتى رسول الله ﷺ بضرب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول الله أفلا نطعمه المساكين ؟ قال : « لا تطعموهم مما لا تأكلون » (١) .

وأخرج ابن المنذر عن نافع قال : كان ابن عمر يشتري السكر فيتصدق به ، فنقول له : لو اشتريت لهم بضمنه طعاما كان أنفع لهم من هذا فيقول : إني أعرف الذى تقولون ، ولكن سمعت الله يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَّ حَقَّ تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ وابن عمر يحب السكر .

وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْآلِرَّ ... ﴾ قال : الجنة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : لن تنالوا بركم حتى تنفقوا مما يعجبكم ومما تهوون من أموالكم .

= قال القرطبي فى تأويل قول الله تعالى :

(١) رواه أحمد فى المسند [١٠٥/٦] وقال الأرناؤوط : حديث

صحيح .

= ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ فيه مسألتان :

الأولى : روى الأئمة واللفظ للنسائي عن أنس قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ قال أبو طلحة : أن ربنا ليسألنا من أموالنا فأشهدك يا رسول الله أنني جعلت أرضي لله ، فقال رسول الله ﷺ : « اجعلها في قرابتك » في حسان بن ثابت وأبي بن كعب .

وفى الموطأ : وكانت أحب أمواله إليه « بئر حاء » وكانت مستقبله المسجد وكان رسول الله ﷺ يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، وذكر الحديث ففي هذه الآية دليل على استعمال ظاهر الخطاب وعمومه فإن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين لم يفهموا من فحوى الخطاب حين نزلت الآية غير ذلك كثيرة ، كذلك فعل زيد بن حارثة عمه مما يحب إلى فرس يقال له : « سبل » وقال : اللهم إنك تعلم أنه ليس لي مال أحب إلي من فرسي هذه فجاء بها إلى النبي ﷺ فقال : هذا في سبيل الله ، فقال لأسامة بن زيد اقضه ، فكان زيدا وجداً من ذلك في نفسه فقال رسول الله ﷺ : إن الله قد قبلها منك .

=

= وذكره أسد بن موسى .

وأعتق ابن عمر نافعاً مولاه ، وكان أعطاه فيه عبد الله بن جعفر ألف دينار . قالت صفية بنت أبي عبيد : أظنه تأول قول الله عز وجل : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

وروى شبل عن أبي نجيح عن مجاهد قال : كتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يتناع له جارية من سبي جلولاء يوم فتح مدائن كسرى ، فقال سعد بن أبي وقاص : فدعا بها عمر فأعجبته ، فقال : إن الله عز وجل يقول : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ فأعتقها عمر رضي الله تعالى عنه .

وروى عن الثوري أنه بلغه أن أم ولد الربيع بن خيثم قالت : كان إذا جاءه السائل يقول لي : يا فلانة أعطى السائل سكرأ فإن الربيع يحب السكر .

قال سفیان : يتأول قوله عز وجل : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ .

وروى عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يشتري أعدالا من السكر ويتصدق بها فقيل له : هلا تصدقت بقيمتها ؟ فقال : لأن السكر أحب إلى فأردت أن أنفق مما أحب . =

= وقال الحسن : إنكم لن تنالوا ما تحبون إلا بترك ما تشتهون ولا تدركوا ما تأملون إلا بالصبر على ما تكرهون .

الثانية : واختلفوا فى تأويل البر قليل : الجنة . عن ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد وعمرو بن ميمون ، والسدى ، والتقدير : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَقَّ تَنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ . والنوال : العطاء ؛ من قولك نولته تنويلاً أعطيته ، ونالني من فلان معروف ينالني ، أى : وصل إلى ، فالمعنى : لن تصلوا إلى الجنة وتعطوها حتى تنفقوا مما تحبون .

وقيل : البر العمل الصالح وفى الحديث الصحيح : « عليكم بالصدق فإنه يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة » (١) =

(١) أخرجه مسلم [١٠٥/٢٦٠٧] عن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة وما زال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقاً ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور ، وإن الفجور يهدي إلى النار ، وما زال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذاباً . والترمذى [١٩٧١] ، وبنحوه البخارى [٦٠٩٤] ، وأبو داود [٤٩٨٩] ، وابن ماجه [٤٨٤٩] .

.....
= وقال عطية العوفي : يعنى ، الطاعة عطاء : لن تنالوا شرف الدين والتقوى حتى تتصدقوا وأنتم أصحاب أشحاء ، تأملون العيش ، وتخشون الفقر .

وعن الحسن : ﴿ حَقَّ تُنْفِقُوا ﴾ هى : الزكاة المفروضة ، مجاهد والكلبي : هى منسوخة نسختها آية الزكاة . وقيل ، المعنى : حتى تنفقوا مما تحبون فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات ، وهذا جامع .

وروى النسائي عن صعصعة بن معاوية قال : لقيت أبا ذر قال : قلت حدثنى قال : نعم قال رسول الله ﷺ : « ما من عبد مسلم ينفق من كل ماله زوجين فى سبيل الله إلا استقبلته حجة الجنة كلهم يدعوه إلى ما عنده . قلت : وكيف ذلك ؟ قال : إن كانت إبلا فبغيرين . وإن كانت بقراً فبقرتين^(١) . وقال أبو بكر الوراق : دلهم بهذه الآية على الفتوة^(٢) =

-
- (١) جزء من حديث رواه أحمد فى المسند [١٥١/٥] عن أبى ذر رضى الله تعالى عنه ، وقال الأرناؤوط : إسناده صحيح .
(٢) الفتوة : يعبر بها عن مكارم الأخلاق .

لقد عرفوا قول الحق : ﴿ لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ ﴾ أى : الجنة المترتبة على الطاعة والتقوى وكلها معان ملتقية .

إذن .. الحق سبحانه يعطى البر ثمناً لإنفاقك مما تحب ، ويعلم سبحانه كل شيء ، وهو الذى يعرف هل أنفقت مما تحب فعلاً أم تيممت الخبيث منه لتنفقه ، فإياك أيها المؤمن أن تخدع نفسك فى هذا الأمر لأن الذى يعطى البر ثمناً لإنفاق ما تحب يعلم خبايا النفس ، قال سبحانه : ﴿ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣] وعلم الله شامل ، فهو سبحانه يعلم ما فى نيتك وكيف أنفقت .



= أى : لن تنالوا برى بكم إلا ببركم إخوانكم ، والإنفاق عليهم من أموالكم وجاهكم ، فإذا فعلتم ذلك نالكم برى وعطفى . قال مجاهد : هو مثل قوله : ﴿ وَيُطْعَمُونَ أَلْطَعَامَ عَلَى حُبِّهِمْ ﴾ [الإنسان : ٨] .

تفسير القرطبي [١٣٤: ١٣٢/٤] .

تحريم الإنفاق رثاء الناس

الحق سبحانه وتعالى يخبرنا عن لون آخر من المقابل للبخل ، وهو المنفق لغاية غير حميدة لماذا ؟ لأنه ينفق رثاء الناس ، لذلك يقول العارفون بفضل الله : اختر من يثمن عطائك . إنك عندما تعطى شيئاً لإنسان فإنه يثمنه بقدرته سواء بكلمة ثناء أو غير ذلك لكن الله يثمن الأمر بشكل مختلف ، ولذلك لما جهز سيدنا عثمان رضى الله تعالى عنه جيش العسرة قال رسول الله ﷺ : « ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم » ^(١) لماذا ؟ لأنه باع بضاعته إلى صاحب كل الفضل ، فالذى يعطى رثاء الناس نقول له : لقد اخترت الشيء الثافه لأنك ما ثُمّنت

(١) روى الترمذى [٣٧٠١] عن عبد الرحمن بن سمرة ، قال : جاء عثمان إلى النبي ﷺ بألف دينار حين جهز جيش العسرة فشرها في حجره ، فجعل يقلبها في حجره ويقول : « ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم » مرتين ، وأحمد في المسند [٦٣/٥] والحاكم في المستدرک [١٥١/٤٥٥٣] وقال هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وواقفه الذهبي . وصححه الألباني .

بضاعتك بل جعلتها تافهة الثمن ، فرثاء الناس لن يعطيك ثواب الله ، فماذا يقدر الناس على عطائك إنهم قد يحسدونك على النعمة ، وقد يتسلط عليك شرارهم لينهبوها منك فلماذا ترائيهم ؟ الحق سبحانه قد قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآتٍ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾ [التوبة : ١١١] لقد اشترى الله تعالى من المؤمنين أنفسهم التى هو سبحانه خالقها ، وأموالهم التى هى موهوبة لهم منه سبحانه ، وأعطى على ذلك الثمن الكبير نعيما خالدا لا يفوتهم ويذهب لغيرهم ، ولا يفوتونه بموت أو خلافة ، لقد أعطى الجنة ، والجنة شىء غال ونفيس ^(١) ، لا يعدله شىء . الذى ليس فيه أغيار لقد أعطاهم الجنة التى لا تفوتهم ولا يفوتونها .

(١) روى الترمذى [٢٤٥٠] عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة » وقال : هذا حديث حسن غريب . والحاكم فى المستدرک [٣٤٣/٤] وقال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه ، وعبد بن حميد فى المنتخب [١٤٦٠] .

إذن .. من يُرائى الناس هو من أهل الخسران ولا يعرف أصول التجارة ، ولم يعرف مع من يتاجر ، لذلك شبهه الله فى آية أخرى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا بُطْلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا ﴾ [البقرة : ٢٦٤] والصفوان هو المروة وهى زلطة كبيرة وعليها قليل من التراب ، والمروة ناعمة فإذا ما نزل عليها الماء أزال كل التراب ولم يبق عليها شىء .

إذن .. لا ينفق أحد رثاء الناس إلا من كان ضعيف الإيمان غير مُلِمٍّ بأصول البيع والشراء لأن الإنسان إن أراد أن يبيع سلعة وهناك تاجر يشتري منه بسعر غالٍ ومضمون فما الذى يجعله يلقي بها تحت أقدام آخرون لا يقدرّون على تسمينها ، وحتى لو قدرّوا فسيكون الثمن بخس بالقياس إلى ما وعد الله عباده .

ولذلك قلنا : فليحذر كل واحد حين يعطى ، أن يتباهى أمام الآخرين أنه أعطى ، أو يحب أن يعلم الآخرين أنه

أعطى فالإنسان لا يجب أن يقوم بالدعاية أنه أعطى ،
لذلك قال النبي ﷺ : « رجل تصدق أخفى حتى لا تعلم
شماله ما تنفق يمينه » ^(١) لماذا ، لأن الرسول ﷺ يقول : « اليد
العليا خير من اليد السفلى » ^(٢) لذلك فليستر الإنسان إنفاقه
في سبيل الله عن أعين الناس حتى يفوز بالخير كله عند الله ،
ولكن الحق سبحانه وتعالى لا يريد أن يضيق على مجال
الإعطاء فقال سبحانه وتعالى : ﴿ إِن تَبَدُّواْ الصَّدَقَتِ فَنِعِمَّا
هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ
عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [البقره: ٢٧١] .

(١) جزء من حديث أخرجه البخارى [١٤٢٣] ، ومسلم [١٠٣١]
والترمذى [٢٣٩١] ، والنسائى فى المجتبى [٢٢٢/٨] عن أبى
هريرة رضى الله تعالى عنه .

(٢) أخرجه البخارى [١٤٢٩] ، ومسلم [٩٤/١٠٣٣] عن ابن
عمر رضى الله تعالى عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « اليد
العليا خير من اليد السفلى ، فاليد العليا هى المنفقة ، والسفلى
هى السائلة » .

الاحتراز من صفات المنافقين

يقول الله تعالى : ﴿ وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللّٰهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] . الناس فى الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال : إما مؤمن وإما كافر وإما منافق . والله سبحانه وتعالى فى بداية القرآن الكريم فى سورة البقرة .. أراد أن يعطينا وصف البشر جميعاً بالنسبة للمنهج وأنهم ثلاث فئات : الفئة الأولى هم المؤمنون عرّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى ثلاث آيات فى قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُقْفُونَ ۚ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۚ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ ﴾ [البقرة : ١٧٧] .

والفئة الثانية عليه السلام : هم الكفار ، وعرّفنا الله سبحانه وتعالى صفاتهم فى آيتين فى قوله تعالى : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ

قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿ [البقرة : ٧] .

وجاء للمنافقين فعرف صفاتهم فى ثلاث عشرة آية متتابعة
لماذا ؟ .. لخطورتهم على الدين ، فالذى يهدم الدين هو المنافق ،
أما الكافر فنحن نتقيه ، ونحذره لأنه يعلن كفره .
إن المنافق يتظاهر أمامك بالإيمان ، ولكنه يطن الشر والكفر ،
وقد تحسبه مؤمناً فتطلعه على أسرارك فيتخذها سلاحاً للطعن
فى الدين .. وقد خلق الله فى الإنسان ملكات متعددة ولكى
يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه لابد أن تكون ملكاته
منسجمة وغير متناقضة ، فالمؤمن ملكاته منسجمة لأنه اعتقد
بقلبه فى الإيمان ، ونطق لسانه بما يعتقد فلا تناقض بين ملكاته
أبداً . والكافر رفض الإيمان وأنكره بقلبه ، ولسانه ينطق بذلك .
ولكن الذى فقد السلام مع ملكاته هو المنافق ، إنه فقد السلام
مع مجتمعه وفقد السلام مع نفسه ، فهو يقول بلسانه ، ما لا
يعتقد قلبه ، يُظهر غير ما يُطن ، ويقول غير ما يعتقد ويخشى
أن يكشفه الناس فيعيش فى خوف عميق ، وهو يعتقد أن ذلك

شئ مؤقت سينتهى . ولكن هذا التناقض يبقى معه إلى آخر يوم
 له فى الدنيا ، ثم ينتقل معه إلى الآخرة فينقض عليه لبقوده إلى
 النار وقرأ قوله تبارك وتعالى : ﴿ وَقَالُوا لِيَجْلُدِهِم لِمَ شَهِدْتُمْ
 عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ
 مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [فصلت : ٢١] . فالسلام الذى كانوا
 يتمنونه لم يحققوه لا فى حياتهم ولا فى آخرتهم ، فلسان
 المنافق يشهد عليه ، ويداه تشهدان عليه ، ورجلاه تشهدان عليه ،
 والجلود تشهد عليه ، فماذابقى له ؟ بينه وبين ربه تناقض ، وبينه
 وبين نفسه تناقض ، وبينه وبين مجتمعه تناقض ، وبينه وبين
 آخرته تناقض . وبينه وبين الكافرين تناقض . يقول لسانه ما ليس
 فى قلبه ولقد وصفهم الحق فى كتابه الخالد فقال سبحانه :
 ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ
 بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [البقرة : ٨] وهذه أول صفات المنافقين فى القرآن
 الكريم ، يعلنون الإيمان وفى قلوبهم الكفر ، ولذلك فإن إيمانهم
 كله تظاهر إذا ذهبوا للصلاة لا تكتب لهم لأنهم يتظاهرون بها
 ولا يؤدونها عن إيمان ، وإذا أدوا الزكاة ، فإنها تكون عليهم

حسرةً ، لأنهم ينفقونها وهم لها كارهون ، لأنها في زعمهم نقص من مالهم . لا يأخذون عليها ثواباً في الآخرة وإذا قتل واحد منهم في غزوة ، انتابهم الحزن والآسى ، لأنهم أهدروا حياتهم ولم يقدموها في سبيل الله . وهكذا يكون كل ما يفعلونه شقاءً بالنسبة لهم .

أما المؤمن فحين يصلى أو يؤدي الزكاة أو يُسْتَشْهَد في سبيل الله فهو يرجو الجنة ، وأما المنافقون فإنهم يفعلون كل هذا وهم لا يرجون شيئاً .. فكأنهم بتفاقهم قد حكم عليهم الله سبحانه وتعالى بالشقاء في الدنيا والآخرة فلا هم في الدنيا لهم متعة المؤمن فيما يفعل في سبيل الله ، ولا هم في الآخرة لهم ثواب المؤمن فيما يرجو من الله . ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [البقرة : ٩] (١) .

(١) قال القرطبي قال علماؤنا: معنى ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ أي : يخادعونهُ عند أنفسهم وعلى ظنهم . وقيل : قال ذلك لعملهم عمل الخادع . وقيل : في الكلام حذف تقديره : يخادعون رسول الله ﷺ عن الحسن وغيره . وجعل خداعهم لرسوله =

= خداعا له لأنه دعاهم برسالته وكذلك إذا خادعوا المؤمنين فقد خادعوا الله . ومخادعتهم : ما أظهروه من الإيمان خلاف ما أبطنوه من الكفر ليحققوا دماءهم وأموالهم ويظنون أنهم قد نجوا وخدعوا . قاله : جماعة من المتأولين . وقال أهل اللغة : أصل المخدع في كلام العرب الفساد حكاه ثعلب عن ابن الأعرابي . وأنشد :

أبيض اللونٍ لذيذ طعمه طيب الريق إذا الريقُ خَدَعُ
قلت : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ على هذا أي يفسدون إيمانهم وأعمالهم فيما بينهم وبين الله تعالى بالرياء . وفي التنزيل : ﴿ يَرَاءُونَ النَّاسَ ﴾ [النساء : ١٤٢] وقيل : أصله الإخفاء ومنه مخدع البيت الذي يحرز فيه الشيء حكاه ابن فارس وغيره . وتقول العرب : أنخدع الضب في جحره ؟ والخداع من الله مجازاتهم على خداعهم أوليائه ورسله . قال الحسن : يعطى كل إنسان من مؤمن ومنافق نور يوم القيامة فيفرج المنافقون ويظنون أنهم قد نجوا فإذا جاؤوا إلى الصراط أطفئ نور كل منافق فذلك قولهم : ﴿ أَنْظَرُونَا نَقْنِيسَ مِنْ نُورِكُمْ ﴾ [الحديد : ١٣] . وقال ابن جرير الطبري : فتأويل ذلك : إن المنافقين يخادعون =

= الله بإحرازهم بنفاقهم دماءهم وأموالهم والله خادعهم بما حكم فيهم من منع دمائهم بما أظهروا بألسنتهم من الإيمان مع علمه بباطن ضمائرهم واعتقادهم الكفر استدراجا منه لهم في الدنيا حتى يلقوه في الآخرة فيوردهم بما استبطنوا من الكفر نار جهنم .

وفي مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني : الخداع : إنزال الغير عما هو بصدده بأمر يبيديه على خلاف ما يخفيه قال تعالى : ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ ﴾ [البقرة : ٩] أي : يخادعون رسوله وأوليائه ونسب ذلك إلى الله تعالى من حيث أن معاملة الرسول كمعاملته ولذلك قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَكَ اللَّهَ ﴾ [الفتح : ١٠] وجعل ذلك خداعا تفضيحا لفعلهم وتنبيها على عظم الرسول وعظم أوليائه . وقول أهل اللغة : إن هذا على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه فيجب أن يعلم أن المقصود بمثله في الحذف لا يحصل لو أتى بالمضاف المحذوف لما ذكرنا من التنبيه على أمرين : أحدهما : فطاعة فعلهم فيما تحزوه من الخديعة وأنهم بمخادعتهم إياه يخادعون الله والثاني : التنبيه على عظم المقصود بالخداع =

وتأتى الصفة الثانية من صفات المنافقين وهى صفة تدل على غفلتهم ، وحمق تفكيرهم ، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعون الله سبحانه وتعالى وهل يستطيع بشر أن يخدع رب العالمين .

إن الله عليم بكل شئ ، عليم بما نخفى وما نعلن ، عليم بالسر ، وما هو أخفى من السر ، وهل يوجد ما هو أخفى من السر ؟ نقول : نعم ، السر هو ما أسررت به لغيرك فكأنه يعلمه

= وأن معاملته كمعاملة الله كما نبه عليه بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ ... ﴾ الآية [الفتح: ١٠] وقوله تعالى: ﴿ وَهُوَ خَدَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٤٢] قيل معناه : مجازيهم بالخداع وقيل : على وجه آخر مذكور في قوله تعالى: ﴿ وَمَكْرُؤًا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٥٤] أي : هذا من باب المشاكلة في اللفظ . وقيل : خَدَعَ الضب ، أي استتر في جحره واستعمال ذلك في الضب أنه يعد عقربا تلدغ من يدخل يديه في جحره ، حتى قيل : العقرب بواب الضب وحاجبه ولاعتقاد الخديعة فيه قيل : أخدع من ضب .

اثنان ، أنت ومن أسررت إليه . ولكن ما هو أخفى من السر ما
تبقيه في نفسك ولا تخبر به أحداً إنه يظل في قلبك لا تسر به
لإنسان والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَإِنْ يَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ
يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ [طه : ٧] .

فلا يوجد مخلوق يستطيع أن يخدع خالقه ولكنهم من
غفلتهم يحسبون أنهم يستطيعون خداع الله جل جلاله . وفي
تصرفهم هذا لا يكون هناك سلام بينهم وبين الله . بل يكون
هناك مقتٌ وغضبٌ .

وهم في خداعهم يحسبون أيضاً أنهم يخدعون الذين آمنوا ،
بأنهم يقولون أمامهم غير ما يظنون ، ولكن هذا الخداع شقاءٌ
عليهم لأنهم يعيشون في خوف مستمر وهم دائماً في قلقٍ أو
خوف من أن يكشفهم المؤمنون ، أو يستمعوا إليهم في
مجالسهم الخاصة وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الإيمان
ولذلك إذا تحدثوا لابد أن يتأكدوا ، أولاً : من أن أحداً من
المؤمنين لا يسمعهم ، ويتأكدوا ثانياً : من أن أحداً من المؤمنين
لن يدخل عليهم وهم يتحدثون ، والخوف يملأ قلوبهم أيضاً

وهم مع المؤمنين . فكل واحد منهم يخشى أن تفلت منه كلمة
تفضح نفاقه وكفره .

وهكذا فلا سلام بينهم وبين المؤمنين .. والحقيقة أنهم لا
يخدعون إلا أنفسهم . فالله سبحانه وتعالى يعلم نفاقهم
والمؤمنون قد يعلمون هذا النفاق فإن لم يعلموه فإن الله
يخبرهم به ، وقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ لَشَاءُ
لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَتَعَرَّفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَتَعَرَّفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ أَعْمَلَكُمْ ﴾ [محمد ٣٠]

ألم يأت المنافقون إلى رسول الله ﷺ ليشهدوا أنه رسول
الله ففضحهم الله أمام رسوله وأنزل قوله تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَكَ
الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴾ [المنافقون : ١] .

جاء المنافقون إلى رسول الله ﷺ يشهدون بصدق رسالته
والله سبحانه وتعالى يعلم أن هذه الشهادة حق وصدق لأنه
جل جلاله يعلم أن رسوله ﷺ صادق الرسالة ولكنه في
الوقت نفسه يشهد بأن المنافقين كاذبون . كيف ؟

كيف يتفق كلام الله مع ما قاله المنافقون ثم يكونوا كاذبين ؟
نقول : لأن المنافقين قالوا بألسنتهم ما ليس في قلوبهم ، فهم
شهدوا بألسنتهم فقط أن محمداً ﷺ رسول الله ولكن قلوبهم
منكرة لذلك مكذبة به ، ولذلك فإن ما قاله المنافقون رغم إنه
حقيقة إلا إنهم يكذبون ويقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم
لأن الصدق هو أن يوافق الكلام حقيقة ما في القلب ، وهؤلاء
كذبوا لأنهم في شهادتهم لرسول الله ﷺ لم يكونوا يعبرون
عن واقع في قلوبهم بل قلوبهم تكذب ما يقولون ..
وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم يفضح الله سبحانه
وتعالى فيها المنافقين ، وينبئ رسوله ﷺ بما يضمرونه في
قلوبهم إذن فخداعهم للمؤمنين رغم أنه خداع بشر لبشر إلا
أنه أحيانا تفلت ألسنتهم فتعرف حقيقتهم ، وإذا لم يفلت
اللسان جاء البيان من الله سبحانه وتعالى ليفضحهم وتكون
حصيلة هذا كله أنهم لا يخدعون أحداً فالله يعلم سرهم
وجهرهم ، فمرة يعين الله المؤمنين عليهم فيكشفونهم ، ومرة
تفلت ألسنة المنافقين فيكشفون أنفسهم .

إذن فسلوك المنافق لا يخدع به إلا نفسه ، وهو الخاسر في الدنيا والآخرة ، عندما يؤدي عملاً إيمانياً فالله يعلم أنه نفاق ، وعندما يحاول أن يخدع المؤمنين ينكشف ، والنتيجة أنهم يعتقدون بأنهم حققوا لأنفسهم نفعاً بينما هم لم يحققوا لأنفسهم إلا الخسران المبين .

قال تعالى : ﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾ [البقرة : ١٠] .

فالله سبحانه وتعالى شبه مافى قلوب المنافقين بأنه مرض والمرض أولاً يورث السقم فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الإيمانية التى تحيى القلب فتجعله قوياً شاباً ولكنها قلوب مريضة ، لماذا كانت مريضة ؟ لقد أتعبها النفاق وأتعبها التنافر مع كل ماحولها وأحست إنها تعيش حياة ملؤها الكذب فاضطراب القلب جعله مريضاً ولا يمكن أن يشفى إلا بإذن الله وعلاجه هو الإيمان الحقيقى الصادق ذلك الذى يعطيه الشفاء والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾ [الإسراء : ٨٢] .

إذن فالإيمان والقرآن هما شفاء القلوب ، كلاهما بعيد عن قلوب هؤلاء المنافقين فكأن المرض يزداد فى قلوبهم مع الزمن والله سبحانه وتعالى - بنفاقهم وكفرهم - يزيدهم مرضاً . وهذه هى الصفة الثالثة للمنافقين .. إنهم أصحاب قلوب مريضة سقيمة لا يدخلها نور الإيمان ولذلك فهى قلوب ضعيفة ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق . وهى قلوب خائفة من كل ماحولها ، مرتعبة فى كل خطواتها ، مضطربة بين مافى القلب ، وما على اللسان والمريض لا يقوى على شئ وكذلك هذه القلوب لا تقوى على قول الحق ، ولا تقوى على الصدق ، ولا ترى ماحولها تلك الرؤية التى تتناسب وتتفق مع فطرة الإيمان التى وضعها الله تعالى فى القلوب ، ولذلك إذا دخل المنافقون فى معركة فى صفوف جيش المسلمين .. فأول ما يبحثون عنه هو الهرب من المعركة يبحثون عن مخبأ يختفون فيه أو مكان لا يراهم فيه أحد والله سبحانه وتعالى بصفهم بقوله : ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلَجًا أَوْ مَفْرَتًا أَوْ مَدَّخَلًا لَّوَلُّوا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴾ [التوبة : ٥٧] .

لماذا ؟ لأنهم أصحاب قلوب مريضة لا تقوى على شئ
ومرضها يجعلها تهرب من كل شئ وتختفى . وليت الأمر
يقتصر عند هذا الحد ولكن ينتظرهم فى الآخرة عذاب أليم
غير العذاب الذى عانوه من قلوبهم المريضة فى الدنيا ، فيما
كانوا يكذبون على الله وعلى رسوله ينتظرهم فى الآخرة
عذاب أليم أشد من عذاب الكافرين . والله سبحانه وتعالى يقول :
﴿ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ ﴾ [النساء : ١٤٥] .



الفهرس

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٣
الإخلاص فى العمل	١٩
التواصى بالحق والخير	٢٢
الضرب على يد صاحب المنكر	٢٥
الاستقامة	٣٢
الثبت والتبين وعدم التسرع	٣٥
النهى عن السوء وسيلة النجاة	٦١
النهى عن تزكية النفس	٦٦
الرحمة واللين فى النصيح	٦٩
الصحبة بالمعروف لغير المؤمن	٧٨
الرضا بالقضاء يرفعه	٨٤
ثمرة الرضا بقضاء الله	٨٦
التكامل والتعاقد سنن الله تعالى فى خلقه	٩٣

٩٨	التوكل على الله وحده
١٠٠	الاحتساب
١٠٢	معية الله ثمرة من ثمرات الاحتساب والتوكل
١٠٨	إخلاص التوكل
١١٢	رذيلة البخل
١١٩	عداوة الأخلاء
١٢١	البخيل يسر للطائع طاعته !!
١٢٣	سبب البخل
١٢٧	أسباب الشح
١٤٢	تحريم الإنفاق رياء الناس
١٤٦	الاحتراز من صفات المنافقين
١٥٩	الفهرس

